الأسس العلمانية لعلم الاجتماع الغربي

« دراسة نقدية »

إعداد

الأستاذ الدكتور/ إبراهيم شعيب زيدان حماد

الأستاذ المساعد بقسم الأديان والمذاهب بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م

الأسس العلمانية لعلم الاجتماع الغربي دراسة نقدية

إبراهيم شعيب زيدان حماد.
قسم الأديان والمذاهب، كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني:Ibrahimshoaib133@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى بيان الأسس العلمانية التى تأسس عليها علم الاجتماع الغربي ، وقد عالجت هذه القضية من خلال دراسة نظريتين رئيستين.الأولى نظرية أوجست كونت التى تمثل مرحلة الظهور والإحياء لعلم الاجتماع الغربي، وقد تبين من دراسة هذه النظرية أن أوجست كونت قد أسس نظريته الاجتماعية في جانبيها الاستاتيكي والديناميكي على أسس علمانية وضعية مادية خالصة ، فالاستاتيك الاجتماعي عنده يقوم على المنهج الوضعي العلماني الذي يعتمد على التجربة والملاحظة ؛بل قد دعا كونت إلى طرد اللاهوت من العلوم الإنسانية كما طُرد من العلوم الطبيعية. وأما الديناميك الاجتماعي فإنه يقوم عنده على قانون التطور سواء كان التطور تطورا عقليا، أو عمليا، أو عاطفيا . وأهم ماذهب إليه في التطور العقلي ما يسمى بقانون الحالات الثلاث. الحالة اللاهوتية ،والحالة الميتافيزيقية ، والحالة الواقعية . وهذا قانون ظاهر البطلان لأن هذه الحالات الثلاث توجد متزامنة وليست ومتعاقبة ، ثم إن كونت قد رجم بالغيب ؛ فمن الذي أطلعه على الكون بداية ومسيرة حتى يجزم بصحة قانونه ذاك! ولم يكتف بهذا بل قد أسس دينا جديدا سماه دين الإنسانية نتيجة لخلل نفسي أصابه لموت عشيقته ، فجعل من هذه التروة دينا دعا الناس إلى الإيمان به.

أما الثانية فهي لدوركايم التى تمثل مرحلة التطور والنماء في علم الاجتماع الغربي. وقد تبين من دراسة هذه النظرية أن دوركايم قد اعتمد المنهج الوضعي في علم الاجتماع

، وزاد على كونت بأن جعل من الظاهرة الاجتماعية ، والعقل الجمعي آلهة تتحكم في المجتمع ؛ فلا راد لقضائها ولا معقب لحكمها. وأما الفطرة والأخلاق والدين فهى من خلق المجتمع . وانتهى دوركايم من دراسته للدين بأن المجتمع يعبد نفسه بنفسه ، وهذا هو عين عقيدة وحدة الوجود في صورتها الساذجة ، حيث إن الكون صورة الإله الظاهرة ، والمجتمع والإله وجهان لعملة واحدة .ولم يستطع دوركايم أن يقدم أدلة تصمد أمام النقاش على مذهبه ؛ فكل ما قدمه لا يعدو إلا أن يكون أهواء ، وظنونا ، وأوهاما ما أنزل الله بها من سلطان.

الكلمات المفتاحية: أوجست كونت– دوركايم– الظاهرة الاجتماعية – الاستاتيك – الديناميك– الحالات الثلاث – الضمير الجمعي – الدين.

Secular foundations of Western sociology Critical study

Ibrahim Shuaib Zidane Hammad
Department of Religions and Sects - Faculty of Islamic Da'wah in Cairo - Al-Azhar University - Egypt
Email: Ibrahimshoaib133@azhar.edu.eg

Abstract:

This research aims to explain the secular foundations upon which Western sociology was founded. I have addressed this issue by studying two main theories. The first is Auguste Comte's theory, which represents the stage of emergence and revival of Western sociology. It has become clear from studying this theory that Auguste Comte founded his social theory in Its static and dynamic aspects are based on purely secular, positivist, materialistic foundations. For him, social statics are based on the secular positivist approach that relies on experience and observation. Rather, Comte called for the expulsion of theology from the human sciences just as it was expelled from the natural sciences. As for social dynamism, it is based on the law of development, whether the development is mental, practical, or emotional. The most important thing he adopted in mental development is what is called the law of three states: the theological state, the metaphysical state, and the realistic state. This is a law that appears to be invalid because these three cases exist simultaneously and not successively. Then, if it was conceived by the unseen; Who informed him of the beginning and path of the universe so that he could be certain of the validity of that law? He was not satisfied with this, but he founded a new religion that he called the religion of humanity as a result of a psychological disorder that befell him due to the death of his mistress. He made this whim a religion that he called people to believe in.

As for the second, it is for Durkheim, which represents the stage of development and growth in Western sociology. It was clear from studying this theory that Durkheim adopted the positivist approach in sociology, and added to Comte by making the social phenomenon and the collective mind gods that control society. There is no objection to its judgment and no follow-up to its ruling. As for common sense, morals, and religion, they are created by society. Dor Kaym concluded his study of religion by saying that society worships itself, and this is the essence of the doctrine of pantheism in its naive form, as the universe is the image of the apparent God, and society and God are two sides of the same coin. Durkheim was unable to provide evidence that would withstand discussion of his doctrine. Everything he presented is nothing more than whims, suspicions, and delusions for which God has sent down no authority.

Keywords: Auguste Comte - Durkheim - social phenomenon - statics - dynamics - the three states - collective conscience - religion.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد

فإن كلية الدعوة الإسلامية أقام الله أركانها، ورسّخ بنيانها قد اعتمدت في خطتها الجديدة تدريس مادة علم الاجتماع ضمن المواد المقررة على الطلاب في مرحلة الإجازة العالية، وقد أوكلت إلىَّ مع آخرين من أعضاء هيئة التدريس بالكلية تدريس هذه المادة، فقمت بما يتوجب علي القيام به من مذاكرة هذه المادة من مراجعها الأصيلة، ومن خلال مدارسها المختلفة فتبين لي من خلال هذه المذاكرة والمراجعة والتدريس الذي استمر لعدة أعوام أن علم الاجتماع الغربي قد تأسس على شفا جرف هار فانهار به في نار المادية البغيضة، وأن نظرياته التي يتغنى بها الغربيون وأتباعهم من المتغربين، لا تمت بسبب إلى الوحي المعصوم، إنما هي جملة من الأهواء ألبسها أصحابها لباس العلم زورا وبهتانا وظنوا أنهم على شيء قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣] فأردت في هذا البحث أن أجلى الأسس العلمانية التي بنى عليها علم الاجتماع الغربي ، من خلال عرض نظريتين رئيستين هما – نظرية أوجست كونت الذي يمثل في علم الاجتماع مرحلة الإحياء ،ونظرية دوركايم الذي يمثل في علم الاجتماع مرحلة التطور والنماء – عرضا أمينا، وسبر أغوارهما حتى تقوم الحجة على القاصي والداني، بأن ما يسمونه علما يدرس المجتمع ويعمل على النهوض به إنما هو جملة من الأهواء يستميت أصحابها في الدفاع عنها ودعوة الناس إليها قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ

أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص: ٥٠] ولا يعنى هذا أن علم الاجتماع الغربي شر مطلق، وأنه لا فائدة منه ترجى ألبتة؛ فإن هذا يخرجنا من دائرة الإنصاف ويدخلنا في دائرة الإجحاف فمن الثابت علميا أن علم الاجتماع الغربي مفيد في بعض أجزائه وتفاصيله؛ ولكن هذه الدراسة معنية بالأسس التي بنى عليها هذا العلم من خلال دراسة نظرية أوجست كونت، ودوركايم وهما الرائدان اللذان لا يخرج علم الاجتماع عن الغربي عنهما ولا عن آرائهما.

وقد جاءت خطة البحث على النحو التالي:

مقدمة: وفيها أهمية الموضوع ، وأسباب اختياره ، ومنهج البحث فيه

تمهيد: التعريف بمفردات عنوان البحث: الأسس – العلمانية – علم الاجتماع الغربي.

الفصل الأول: الأسس العلمانية لنظرية أوجست كونت الاجتماعية.

المبحث الأول : الأسس العلمانية للاستاتيك الاجتماعي عند أوجست كونت.

المبحث الثاني: الأسس العلمانية للديناميك الاجتماعي عند أوجست كونت.

المبحث الثالث: دين الإنسانية عند أوجست كونت.

الفصل الثاني: الأسس العلمانية لنظرية إيميل دور كايم الاجتماعية.

المبحث الأول: الأسس العلمانية للظاهرة الاجتماعية عند إيميل دوركايم.

المبحث الثاني: الأسس العلمانية للضمير الجمعي عند إيميل دوركايم.

المبحث الثالث: الأسس العلمانية للدين عند إيميل دور كايم.

التمهيد

التعريف بمفردات عنوان البحث

أولا: مفهوم الأسس

جاء في الصحاح للجوهري" الأُسُّ: أصل البِناء، وكذلك الأساسُ، والأَسَسُ مقصورٌ منه. وجمع الأُسِّ إساسٌ مثل عُسّ وعِساسٍ، وجمع الأَساسِ أُسُس مثل قَذالٍ وقُذُلٍ، وجمع الأَسَسِ آساسٌ مثل سببٍ وأسبابٍ. وقد أَسَّسْتُ البناء تأسيسا" [(١)].

ويتضح من كلام الجوهري أن الأساس ما يُبنى عليه الشيء فهو الأصل والبناء فرع عنه

ثانيا: العلمانية

العلمانية لغة:

لم ترد في أي من المعاجم اللغوية القديمة وقد اختلف فيها هل هي من العلم بكسر العين أم من العالم والراجح أنها نسبة على غير قياس للعالم فقد جاء في المعجم الوسيط " (العلماني) نِسْبَة إِلَى الْعلم بِمَعْنى الْعَالم وَهُوَ خلاف الديني أَو الكهنوتي"[(٢)] وتعنى هذه الكلمة" القواعد التي لا تربط بالقواعد الكنسية أو الأنظمة الدينية، فلا تبالى بالدين والاعتبارات الدينية"[(٣)].

إذن يتضح أن كلمة العلمانية(Secularism) تعنى العالم أو الدنيا ومن ثم يكون المعنى الصحيح للكلمة هو (اللادينية) أو (الدنيوية) لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب، بل بمعنى أخص هو ما لا صلة له بالدين، أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد، فقد

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري مادة أسس(٩٠٣/٣)تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين – بيروت ط٤/ ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م

(٢) المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية بالقاهرة مادة العلم (٦٢٤/٢)

(٣) تهافت العلمانية في الصحافة العربية المستشار سالم علي البهنساوي ص(٥) دار الوفاءط١/ ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م.

وضعت هذه الكلمة في مقابل الكنيسة[١].

العلمانية اصطلاحا:

جاء في كتاب أكسفورد " العلمانية هي العمل الذي لا ننفك نؤديه وهى أكبر من الإلحاد وتشمله"[٢] إذا العلمانية جملة من الأعمال يجب على المرء أن يقوم بها هي بمثابة الشعائر لعقيدة الإلحاد التي تنطوي عليها.

وجاء في المعجم الدولي الثالث الجديد في تعريف العلمانية أن "مادة: (Secularism) تعنى: "اتجاها في الحياة أو في أي شأن خاص يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب ألاَّ تتدخل في الحكومة، أو استبعاد هذه الاعتبارات استبعاداً مقصوداً، فهي تعني مثلاً السياسة اللادينية البحتة في الحكومة. وهي نظام اجتماعي في الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين"[٣]. وهذا يعنى أن " الأساس الخاص الذي قامت عليه الفلسفة الوضعية هو تقدير الطبيعة وتقييمها وحدها كمصدر للمعرفة. والطبيعة، أو الحقيقة، أو الواقع، أو الحس كلها تدل على معنى واحد في نظر الوضعيين، فالطبيعة هي المصدر الفريد للمعرفة اليقينية أو المعرفة الحقة بمعنى أن الطبيعة هي التي تنقش الحقيقة في عقل الإنسان، إذا ما يأتي من وراء الطبيعة خداع للحقيقة ، وليس حقيقة وكذا ما يتصوره العقل من نفسه وهم وتخيل للحقيقة وليس حقيقة"[٤].

---

(١) ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة د/عبدالوهاب المسيري (١٧/١) وما بعدها دار الشروق ط١/١٤٢٣هـ٢٠٠٢م

(٢) المرجع في العلمانية كتاب أكسفورد تحرير فيل زوكرمان وآخرين (٣٠/١) ترجمة شكري مجاهد الشبكة العربية للأبحاث والنشر ط١ بيروت ٢٠٢٣م

(٣) Websters Third New Internatioal Dic.: 2053.

(٤) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي د/ محمد البهي ص(٢٦٦-٢٦٧) بتصرف يسير مكتبة وهبة ط١٤/١٤٢٦هـ٢٠٠٥م.

إذن العلمانية دهرية جديدة لا تلقى للدين بالا، لا في قليل ولا في كثير فالدين بالنسبة لهم كائن غريب عن هذه الحياة ومن ثم وجب عليه الرحيل عن الدنيا إلى غير رجعة وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى واصما قائليه بالجهل وعدم اليقين في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ثالثا: علم الاجتماع الغربي:

عرف علماء الاجتماع الغربي علم الاجتماع بتعريفات كثيرة منها ما ذهب إليه أوجست كونت(١) بأنه "العلم الذي يتخذ من الظواهر الاجتماعية موضوعا لدراسته باعتبار هذه الظواهر من نفس روح الظواهر الفلكية والطبيعية والكيمياوية والفسيولوجية من حيث كونها موضوعا للقوانين الطبيعية الثابتة"(٢).

وعرفه إيميل دوركايم(٣) بأنه " علم الظواهر الاجتماعية والنظم الاجتماعية(١).

---

(١) يلقب بمؤسس علم الاجتماع حيث ولد أوجست كونت في فرنسا في العام ١٧٨٩م في نهاية الثورة الفرنسية التي أسقطت بدورها قوانين ومعتقدات تقليدية وكان طالبا متقد الذكاء ولذا قبل في مدرسة الفنون المتعددة وهى مدرسة هندسية مرموقة وبعد طرده منها لمواقفه الثورية عمل كاتبا عند المصلح الاجتماعي هنري سيمون وبفضله تعلم كونت التفكير من منطلق إعادة بناء المجتمع على أساس الصناعة والفلسفة الوضعية التي ترسخت فيما بعد في العلوم وبخاصة في دراسة المجتمع ، له عدة مصنفات منها نظام الفلسفة الوضعية الذي الذي يتضمن العلوم الأساسية الستة وهى كالآتي علم الرياضيات ، وعلم الفلك ، وعلم والفيزياء ، والكيماء وعلم الاجتماع توفي ١٨٥٧م " ينظر خمسون عالما اجتماعيا أساسيا المنظرون المؤسسون تحرير جون سكوت (ص٢٧٩) وما بعدها ترجمة رشا جمال الشبكة العربية للأبحاث والنشر ط٢ بيروت ٢٠١٣م

(٢) نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها نيقولا تيماشيف (ص٤٩) ترجمة د/محمد عودة وآخرين دار المعارف ط٨/١٩٨٣م

(٣) ولد كايم في ١٥ أبريل ١٨٥٨م في فرنسا وكان والده كبير حاخامات ، وكان عليه أن يسلك الطريق ذاته ، ولكنه هجر المعتقدات الدينية فور انتهاء دراسته ، ثم تم اختياره لتدريس العلوم الاجتماعية وعلم =

وعرفه الدكتور على عبد الواحد وافي بأنه "العلم الذي يدرس الظاهرات الاجتماعية أو أحوال الاجتماع الإنساني"(٢).

وعلى أية حال فإن "علم الاجتماع في أوسع معانيه هو دراسة التأثيرات والعلاقات الإنسانية المتبادلة، وما يتحكم فيها من شروط وما ينجم عنها من نتائج"(٣).

أو هو "الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعي، أو الفعل الاجتماعي للكائنات الإنسانية(٤).

وأنت ترى أن هذه التعريفات تقف بالظاهرة الاجتماعية عند حدود الدراسة الوصفية فقط دون التطلع بالدراسة إلى العلاج أو الارتقاء والتحسين

ولذا فإن ما ذهب إليه العلامة ابن خلدون في تعريفه لعلم الاجتماع هو الأحرى بالقبول فيقول: "وكأن هذا علم مستقل بنفسه فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى و هذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أو عقلياً"(٥).

=

التربية بجامعة بوردو ، ولما بلغ سنه الخامسة والثلاثين حصل على الدكتوراة من جامعة باريس عن رسالته توزيع العمالة في المجتمع ،عين أستاذا في السوربون ١٩٠٢م وذاع صيته إثر ذلك له مصنفات عدة منها تقسيم العمالة في المجتمع ، ومنها النهج السوسيولوجي ، قواعد المنهج في علم الاجتماع توفي ١٩١٧م" ينظر خمسون عالما اجتماعيا أساسيا المنظرون المؤسسون تحرير جون سكوت (ص١١٤) وما بعدها ترجمة رشا جمال الشبكة العربية للأبحاث والنشر ط٢ بيروت ٢٠١٣م

(١) المرجع السابق (ص١٨٤)

(٢) علم الاجتماع د/ على عبدالواحد وافي (ص٥) نهضة مصر ولمزيد من التعريفات انظر علم الاجتماع المفهوم والموضوع والمنهج د/ صلاح الفوال (ص ١٣) وما بعدها دار الفكر العربي ١٩٨٢م وانظر أيضا علم الاجتماع د/ عبدالحميد لطفي (ص٣٥) وما بعدها مكتبة القاهرة الحديثة

(٣) علم الاجتماع د/ موريس خبزبرج ص(١١) دار سعد مصر

(٤) قاموس علم الاجتماع د/ محمد عاطف غيث ص(٤٥٣) الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٧٩م

(٥) مقدمة ابن خلدون عبدالرحمن بن خلدون (١٨٨/١) تحقيق د/ على عبد الواحد وافي مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م

ويميز ابن خلدون بين علم الاجتماع وبين غيره من العلوم مؤكدا ريادته في هذا الميدان وأنه إمام هذا الفن غير مدافع ومنشئه غير منازع بقوله" واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة عزيز الفائدة أعثر عليه البحث وأدى إليه الغوص وليس من علم الخطابة إنما هو الأقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي أو صدهم عنه ولا هو أيضاً من علم السياسة المدنية إذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق و الحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنين اللذين ربما يشبهانه وكأنه علم مسنبط النشأة و لعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة"[(١)].

ومهما يكن من شيء فإن علم الاجتماع الإسلامي على النقيض من علم الاجتماع الغربي، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ومن ثم فإن علم الاجتماع الإسلامي" هو العلم الذي يبحث في المجتمع الإنساني لتحديد أسس البناء الاجتماعي، وقوانين حركة المجتمعات تقدما أو تأخراً، بهدف تحقيق الانسجام بين بني البشر من جهة وبينهم وبين الكون الذي يعيشون فيه من جهة ثانية، وذلك طبقا لما ورد في كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)"[(٢)].

أما علم الاجتماع الغربي فيؤسس لمجتمع علماني "تتميز قيمه الأولية بالنفعية والرشد ، ويساند التغير ويدعو إلى التجديد ويدعمه. ويتميز المجتمع العلماني في مقابل المجتمع المقدس بفقدانه الاهتمام بما هو مقدس أو خارق للطبيعة، أو بالقيم المرتبطة بالنزعة التقليدية وبالاتجاه المحافظ"[(٣)]؛ لأن المجتمع الأوربي الحديث قام على رفض الدين متمثلا في الكنيسة " ومعنى أن يرفض المجتمع دعوة الكنيسة هو أن يشك في وجود الله ، كما يشك في وجود الآخرة ،وأن يرتكز إيمانه على الأقل في وجود نفسه ،وبوجود الأرض

(١) المرجع السابق (١/١٨٩-١٩٠)

(٢) بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي د/ سعد الدين صالح (ص ١١) مكتبة الصحابة

(٣) قاموس علم الاجتماع د/ محمد عاطف غيث ص(٤٠٤-٤٠٥) الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٧٩م

التي يعيش فوقها"[١]. ومجتمع هذا شأنه قائم على الإيمان بوجوده ،ولا يؤمن بأي شيء آخر لا شك أنه " سيفكر في أن يستقل عن أية وصاية غريبة عن منطقه، وفي أن يخطط بذاته سلوك حياة أفراده الشخصية، وفي علاقتهم بعضهم مع بعض. وهنا كانت معاييره في الأخلاق، وقوانينه في المجتمع نفسه، ونظام حكمه في الدولة صادرة من إيمان بالإنسان وحده، دون إيمان بموجود آخر قبله، أو بعده"[٢].

وبناء على ذلك "فإن العلمانية ليس لها مكان في وجود الإنسان مع الإسلام فإما أن يوجد الإسلام ولا علمانية، أو توجد العلمانية ولا إسلام. والعلمانية في تصوير بعض المسلمين المعاصرين، وفي محاولتهم التوفيق بينها وبين الإسلام في مجتمع إسلامي تعود إلى قصور في تصور الإسلام، ثم إلى رغبة في محاكاة حلول في تفكير الغرب لمشاكل كانت وليدة البيئة الغربية"[٣].

أقسام علم الاجتماع الغربي

لقد قسم الرواد من علماء علم الاجتماع الغربي علم الاجتماع إلى قسمين رئيسيين هما الاستاتيكا والديناميكا[٤].

فالاستاتيكا الاجتماعية أي علم الاجتماع الساكن عرفها كونت " بأنها دراسة البناء الاجتماعي والعلاقات المتبادلة بين أجزائه المختلفة في لحظة معينة"[٥].

---

(١) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر د/ محمد البهي ص(١٤)مكتبة وهبة ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة

(٣) العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق د/ محمد البهي ص(١٥)هدية مجلة الأزهر لشهر ربيع الآخر ١٤١٥هـ

(٤) هذا التقسيم مستعار من البيولوجيا(علم دراسة الحياة) التي كانت تعرف بالفسيولوجيا في عصر كونت الأمر الذي يتمشى مع تأكيده لفكرة تدرج العلوم وتمتعها بخصائص مشتركة " ينظر: نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ص(٥٣) مرجع سابق

(٥) قاموس علم الاجتماع ص(٤٣٩) مرجع سابق

وأما الديناميكا الاجتماعية أي علم الاجتماع المتطور " فتعني دراسة المجتمع في حدود العمليات الاجتماعية ذات الارتباط المتبادل، ومراحل التغير الاجتماعية المتلاحقة"(١).

وفي التفرقة بين الاستاتيكا والديناميكا يقول نيقولا تيماشيف: " تهتم الاستاتيكا بدراسة شروط وجود المجتمع، بينما تهتم الديناميكا بدراسة حركته المستمرة، أو بالأحرى دراسة تتابع المراحل الواحدة تلو الأخرى . والنظام هو الحقيقة الرئيسية في الاستاتيكا، والتقدم هو الحقيقة الكبرى في الديناميكا، وبعبارة أخرى فإن الاستاتيكا هي نظرية النظام الذي يشير إلى الانسجام والتوازن بين ظروف وجود الإنسان في المجتمع ، بينما تعد الديناميكا نظرية في التقدم الاجتماعي تهتم بدراسة النمو الأساسي للمجتمع وتطوره . لكن النظام والتقدم يرتبطان فيما بينهما ارتبطا وثيقا، فلا يمكن إقامة نظام اجتماعي حقيقي، إن لم يكن ملائما للتقدم أو مطابقا له، ولا يكون التقدم المستمر ممكنا، إذا لم يظاهره ويسانده نظام"(٢).

ومهما يكن من شيء فإن الاستاتيك الاجتماعي يمتاز بخاصتين الأولى: أنه يدرس المجتمع في تفاصيله. الثانية: أنه يدرس المجتمع من ناحية استقراره لا من ناحية تطوره. والديناميك الاجتماعي يمتاز بخاصتين أيضا الأولى: أنه يدرس الاجتماع الإنساني في جملته. الثانية. أنه يدرس الاجتماع الإنساني من ناحية تطوره(٣).

رابعا: المنهج النقدي

" هو المنهج الذي يعنى بدراسة الأشياء وتحليلها وموازنتها بغيرها لها أو المقابلة ثم الحكم عليها ببيان قيمتها ودرجتها(٤).

---

(١) المرجع السابق ص (٤٢٣)

(٢) نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ص(٥٣) بتصرف يسير مرجع سابق

(٣) ينظر: علم الاجتماع د/ على عبد الواحد وافي ص (١١١)نهضة مصر بدون تاريخ

(٤) النقد الأدبي أحمد الشايب ص(١١٤-١١٥) ط١٠ مكتبة النهضة المصرية بدون تاريخ

الفصل الأول

الأسس العلمانية لنظرية أوجست كونت الاجتماعية

المبحث الأول: الأسس العلمانية للاستاتيك الاجتماعي عند أوجست كونت.

المبحث الثاني: الأسس العلمانية للديناميك الاجتماعي عند أوجست كونت.

المبحث الثالث: دين الإنسانية عند أوجست كونت.

المبحث الأول

الأسس العلمانية للاستاتيك الاجتماعي عند أوجست كونت

إن الفوضى التي عاشها المجتمع الفرنسي في أعقاب الثورة الفرنسية ١٧٨٩م-١٧٩٩م دفعت الفلاسفة والمصلحين للتفكير في إصلاح المجتمع وإعادة تنظيمه ورأى كونت أن تلك الفوضى تتلخص " في وجود أسلوبين متناقضين للتفكير وفهم الظواهر :

أحدهما: الأسلوب العلمي الوضعي الذي يتجه إليه الناس في عصره إذ يفكرون في الظواهر الكونية والطبيعية والبيولوجية.

وثانيهما: التفكير الديني الميتافيزيقي الذي يتجهون إليه عند التفكير في الظواهر التي تتعلق بالإنسان والمجتمع . وقد أدت هذه الفوضى العقلية إلى فساد في الأخلاق والسلوك"[(١)].

وإذا كان الحال كذلك فما السبيل إلى القضاء على هذه الفوضى؟.

هل نعتمد المنهجين معا الوضعي والميتافيزيقي في تفسير الظاهرات الاجتماعية وهذا فيه جمع بين النقيضين ، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ؟ " فشتان بين المنهج الوضعي الذي يقوم على الملاحظة وتقرير طبائع الأشياء كما هي وبين المنهج الميتافيزيقي الذي يقوم على التأمل النظري والبحث المطلق . شتان بين المنهج الوضعي الذي يدرس الحقائق الجزئية وعناصر الظواهر محاولا الوصول إلى أسبابها المباشرة ، وبين المنهج الميتافيزيقي الذي يدرس الحقائق الكلية ويبحث في العلل الأولى . شتان بين المنهج الوضعي الذي يقوم على الإيمان بخضوع الظواهر لقوانين يمكن الكشف عنها وبين المنهج الميتافيزيقي الذي لا يؤمن بهذه الفكرة. فالمنهج الأول نسبي والثاني مطلق ؛ غاية الأول كشف القوانين العلمية ؛ وغاية الثاني وضع مبادئ فلسفية لا سبيل إلى

---

(١) علم الاجتماع ومدارسه د/ مصطفى الخشاب (١٢٦/١) مطبعة لجنة البيان العربي ط١ ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م.

تصورها"[١].

ولذا فإن أوجست كونت لم يتردد في القول بأن المنهج الوضعي (العلماني) الذي يعتمد على الملاحظة والتجربة والفروض هو المخلص من تلك الفوضى التي ضربت بأطنابها في جنبات المجتمع الفرنسي عقيب ثورته ذائعة السيط يقول: " إننا ما دمنا نفكر بشكل وضعي في مادة علم الفلك أو الفيزياء لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة في مادة السياسة أو الدين فالمنهج الوضعي الذي نجح في العلوم الطبيعية غير العضوية يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير"[٢]. لأن العلم كما يرى هؤلاء ينحصر في الواقع فهو" معرفة منظمة يبدأ بالواقع وينتهي إلى تفسيره ...،والوقائع من وجهة نظر العالم ليست معطيات عشوائية ، ولكنها منتظمة في إطار يمكن الباحث العلمي في نهاية المطاف من التوصل إلى المبادئ أو القضايا العامة التي تمثل عناصر البناء النظري"[٣]. وأنت ترى أن كونت لم ينكر القيمة الذاتية للدين فحسب بل " ربطه بالخرافة ،وجعله إنتاجا للوهم والخيال الإنساني ،تحت تأثير الصدفة، أو تحت الوقوع لحالات نفسية معينة ، وبذلك لا يحتمل الدين اختبارات العلم، ولا يقف أمام كشفه!

والاعتماد على الدين إذن في التوجيه اعتماد على الخرافة والوهم ،وفي الوقت نفسه الإيمان به صد عن العلم وعن تقبل نتائجه مما يصعب على الإنسان معيشته وحياته"[٤].

إن الغاية من العلم كما يرى كونت " يجب أن تكون كسب المعرفة التي نستطيع

---

(١) المرجع السابق (١/١٢٧)

(٢) منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية د/ محمد محمد امزيان ص(٥٢) المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤٠١هـ -١٩٨١م.

(٣) البحث الاجتماعي دراسة في طرائق البحث وأساليبه د/محمد على محمد ص(٤٥) دار المعرفة الجامعية ١٩٩٧م

(٤) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ص(١٦) مرجع سابق

التغلب بها على الأشياء وعلى مجرى الحوادث في العالم، والعلم بالمعنى الصحيح هو معرفة القوانين الحقيقية للظواهر الطبيعية، ولا طريقة له إلا التجربة"[١]. أي أن العقل عندما فسر الظواهر الطبيعية وصل إلى "القوانين التي تحكمها وتنظمها، فبدلا من إرادة الآلهة أو القوى الميتافيزيقية أصبح القانون العلمي هو محور البحث، وبدلا من البحث المطلق اللامحدود أضحى البحث خاصا بطائفة معينة من الظواهر حتى يطمئن العقل في الوصول إلى حقيقتها"[٢].

وهذا يعنى أن نظريته الاجتماعية مستقاة من الواقع، ومنتزعة من الأرض، وأن وهج العلم المادي القائم على الملاحظة والتجربة قد استولى علي عقله " فحصر فيه كل الحقيقة ، وانتهى بفلسفته التي سماها واقعية إلى ما انتهت إليه الفلسفة المادية البحت"[٣] وهذا هو أول أساس علماني اعتمده كونت في التنظير لنظريته الاجتماعية. وهو بالأساس خطأ منهجي فادح حيث لم يفرق " بين الكائن الاجتماعي والكائن المادي. وتصوره الخاطئ في إمكان تطبيق منهج المادة الصماء على الإنسان ذي الروح والعقل والفطرة والغرائز ، وغير ذلك من الأمور التي لا تخضع للمنهج الحسي"[٤]. إذا المحسوس ولا شيء آخر هو مصدر التفكير عند أوجست كونت " ولا يعتبر شيئا ما حقيقيا إلا ذلك الموضوع الوضعي ، الذي جاء أثرا عن تجارب الحس، والذي يمكن فقط اختباره بالحس. وعلى هذا الصراط أنكر المذهب الوضعي كل تفكير ميتافيزيقي، واستبعد البحث في الغايات والعلل الأولى، ولم يعترف بغير المحسوس"[٥]. يقول الأستاذ العقاد

---

(١) المدخل إلى الفلسفة أزفلد كوليه ص (٢٨٨) ترجمة أبو العلا عفيفي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط٤ /١٩٦١م.

(٢) أوجيست كونت د/مصطفي الخشاب ص(٧٢) مطبعة لجنة البيان العربي /ط١/١٣٦٩هـ -١٩٥٠م.

(٣) كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص (٤٢٢) دار القلم دمشق ط٤١٤٢٨هـ٢٠٠٧م

(٤) بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي ص (٤٤) مرجع سابق

(٥) الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة في القديم والحديث د/ عبدالقادر محمود ص(١٩٧) الهيئة العامة =

رحمه الله " فمدرسة المنطق الوضعي لا ترى محلا للبحث فيما وراء الطبيعة لأنها ترجع بالمعرفة كلها إلى الحس وكل كلمة لا نرى مصداقها في شيء محسوس، فهي لغو فارغ وقرقعة أشبه بقرقعة الأصوات المادية"(١). ولذا يرى كونت أن العقل لن يصل " إلى هذه الفكرة الوضعية في العلم إلا بعد أن يجتاز مرحلتين أخريين من مراحل التفكير هما مرحلة التفكير اللاهوتي ، والميتافيزيقي ، فإنهما ليس لهما أساس في العلم ، ولم يكن لهما أثر كبير في توجيه الإنسانية"(٢). وهذا الذي ذهب إليه كونت يمكن رده بأن "المادة ذرات ، والذرة لا يدري أحد أهي موجة ، أو جوهر فرد صغير بالغ الصغر ، ولكنه يقبل الانقسام فيطير شعاعا في الأثير. وما الأثير؟ كل ما قيل عن الروح أيسر فهما وأقرب إلى الإدراك من هذا الأثير . شيء لا لون له ولا كثافة، ولا حركة ولا تصدق عليه خاصة من خواص المادة في علم العارفين بها والعاملين في ذراتها"(٣). إذن المادة نفسها ليست خاضعة للحواس من منظور القرار العلمي الصحيح إنما الخاضع للحواس مظاهر وظواهر تتغير وتتبدل. إضافة إلى ذلك يوجد كثير من الأشياء المبثوثة في هذا العالم و التي يؤمن بها كونت وأضرابه ولا تقع تحت سلطان الحس كالجاذبية والكثافة وغيرها ، ثم إن هذا المسلك هو عين المسلك الذي انتهجه الجاهليون العرب مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ

=

المصرية للكتاب ط٢ ١٩٨٦م

(١) عقائد المفكرين في القرن العشرين الأستاذ عباس محمود العقاد ص (١١٧) دار المعارف بدون تاريخ

(٢) المدخل إلى الفلسفة ص (٢٨٨) مرجع سابق

(٣) الشيوعية والإنسانية عباس محمود العقاد ص(١٠٤)

﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠ – ٩٣] وأنت ترى أن هذه المطالب التي لم تجر العادة بوجودها ، ولم تقتض الحكمة وقوعها كلها مطالب حسية ، أما ما هو فوق إدراكهم فهم به مستهزؤن وهم له منكرون.

الظاهرة الاجتماعية عند أوجست كونت

إن الإطار الفكري لدي أوجست كونت في تفسير الظاهرات الاجتماعية يقوم " على دعائم الفلسفة الوضعية التي تنظر إلى جميع الظاهرات على أنها خاضعة لقوانين طبيعية لا تتغير . وفي هذا يذهب على أننا لما كنا ندرك عقم ما يسمي "بالعلل الأولى" في أي بحث فإن مهمتنا كشف هذه القوانين بدقة ...،فمهمتنا يجب أن تتركز في أن نحلل بدقة ظروف الظاهرات لنجمع بينها عن طريق علاقات التشابه والتعاقب الطبيعية"(١).

ولذا فقد وضع أوجست كونت شرطين لفهم الظاهرات الاجتماعية طبقا للمنهج الوضعي العلماني الذي ارتضاه.

الشرط الأول: أن تكون الظاهرة خاضعة لقوانين ولا تسير وفق الأهواء والمصادفات ؛لأن فهم الظاهرة بطريقة وضعية هو عبارة عن الوصول إلى القوانين التي تحكمها. الشرط الثاني: أن يستطيع الأفراد الوقوف على هذه القوانين لكي يفهموا الظواهر وفق ما ترسمه قوانينها من حدود وأوضاع"(٢).

والشرط الأول يمكن الوصول إليه في نظر كونت " لأن المجتمع جزء من الطبيعة الكلية ؛ وجميع نواحي هذه الطبيعة قد خضعت لقوانين ثابتة أمكن الوصول إليها. وأما الشرط الثاني : وهو معرفة الناس لهذه القوانين فلا يمكن توافره إلا إذا كشف الباحثون

---

(١) اتجاهات نظرية في علم الاجتماع د/ عبد الباسط عبد المعطي ص(١٠٣-١٠٤) رؤية للنشر والتوزيع ٢٠٠٩م

(٢) علم الاجتماع ومدارسه د/ مصطفى الخشاب (١/١٢٨-١٢٩) مرجع سابق

عن هذه القوانين عن طريق علم الاجتماع"[١].

إن أوجست كونت قد بين منهجه الوضعي العلماني بيانا لا يقبل التأويل حين يقول " ومن الواجب ضرورة أن ننظر إلى هذه الظاهرة الكبرى المستمرة على أنها خاضعة لقوانين ، وهى قوانين وضعية تماما كقوانين جميع الظواهر الأخرى"[٢]. ويقول أيضا " إن الفلسفتين اللاهوتية والمتافيزيقية قد طردتا من جميع فروع التفكير النظري الإنساني، وهما لا يسيطران الآن إلا في مجموعة من الدراسات الاجتماعية، وهذا هو المجال الأخير الذي يجب أن يطردا منه أيضا، وهذا ما يجب أن يترتب بصفة خاصة على الفكرة الأساسية عن الحركة الاجتماعية باعتبار أنها تخضع ضرورة لقوانين طبيعية ثابتة بدلا من أن تسيطر عليها إرادات أيا كانت"[٣]. وأنت ترى أن أوجست كونت يقرر أن جميع العلوم قائمة على أساس وضعي علماني ،وتخضع لقوانين صارمة لا تتغير ولا تتبدل، وأنه يجب علمنة ما تبقى منها وعلى رأسها علم الاجتماع. وهذا من أوجست كونت ادعاء لا دليل عليه؛ بل الدليل على خلافه "حيث سقطت فكرة حتمية القوانين الطبيعية واضطرادها؛ فمثلا بعد الوصول في انحلال الذرة إلى إشعاعات، لم يعد من الممكن قياسها، وكل ما يمكن نحوها أن تحسب فقط حسابات احتمالية"[٤]. فالعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة ولذا " فإن النتائج التجريبية لم تكن من الدقة كما توهم الباحثون ؛ لأن نتائج البحث الطبيعي العلمية للواقع لو كانت هي النتائج النهائية لحقيقة الأمر بالنسبة

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة

(٢) من دروس الفلسفة الوضعية أوجست كونت(ص ١٩٢-١٩٥) نقلا عن تراث الإنسانية د/ محمود قاسم (١٣/٢)

(٣) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة وينظر: دفاعا عن علمية علم الاجتماع / سمير إبراهيم حسن ص(١٠٩) وما بعدها المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٢٣م

(٤) الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه د/ محمود عبد الحكيم عتمان ص(١٠٣) ط٥ ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م

لموضوعاتها المختلفة ، لما كانت هناك حاجة لمواصلة البحث العلمي"[١].

وبالتالي فإن ادعاءات أوجست كونت بأن قوانين الطبيعة قوانين حتمية ،وأنه يجب تطبيقها على الظاهرة الاجتماعية، وأن علم الاجتماع لديه القدرة على الوصول إلى قوانين حتمية تخضع لها الظاهرات الاجتماعية ادعاءات لا دليل عليها ولا تصح علميا يقول هانز رايخنباخ"[٢]. وهو من المتعصبين للعلم التجريبي "إن الحل الوحيد لتبرير علم الاجتماع من الناحية الفكرية هو تطبيق ما وصلت إليه البحوث بالنسبة لقوانين الطبيعة على علم الاجتماع، تلك التي تقضي بأن قوانين العلوم الطبيعية هي قوانين احتمالية فقط، وبتطبيق هذه الفكرة على علم الاجتماع يمكن حل مشكلته على أساس أن قوانينه احتمالية"[٣].

وعلى أية حال فإن هذه الشروط التي رأي فيها أوجست كونت منجاة من الفوضى العقلية في تفسير الظاهرات الاجتماعية على الرغم من ذلك فإن أوجست كونت قد " عنى بتفسير الظاهرة الطبيعية والكيمائية والبيولوجية وتحديد موضوعات هذه العلوم ولكنه لم يعطنا تعريفا للظاهرة الاجتماعية، أو تحديدا لموضوع علم الطبيعة الاجتماعية؛ لأن علم الاجتماع يدرس كل الظواهر التي لم تدرسها العلوم الأخرى السابقة عليه؛ ولذلك فالإنسانية في نظره هي موضوع هذا العلم"[٤]. وأنت ترى أن أوجست كونت " قد حاكى الظاهرة الطبيعية مع أن هناك فروقا كمية وكيفية بين الإنسان والشمس، أو المد والجز . قد يقال إنه أراد أن يُكسب العلم قدرا من الدقة لأنه

---

(١) نحو علم اجتماع اسلامي ص(٨٧) مرجع سابق

(٢) هانز رايخنباخ (٢٦ سبتمبر، ١٨٩١ في هامبورغ – ٩ أبريل، ١٩٥٣ في لوس أنجلوس). كان هانز رايخنباخ متخصصاً في فلسفة العلوم، ومربياً، وأحد المنادين بالتجريبية المنطقية) ويكبيديا الموسوعة الحرة تاريخ الزيارة ٢٠٢٤/٥/٢م

(٣) نشأة الفلسفة العلمية هانزر يشنباخ نقلا عن المرجع السابق نفس الصفحة

(٤) المرجع السابق ١٢٩/٠١-١٣٠)

خلصه من إسار الميتافيزيقا وأوهامها وشوائبها. وهذا القول وإن كان يعنى السير في طريق استقلال العلم فقد حرمه بعد ذلك من التأصيل والإبداع النظري ، فإبعاده إياه عن الفكر الفلسفي جعل الواقع الاجتماعي المدروس يجيء واقعا مشوها زائفا"(١).

إن فصل الظاهرة الاجتماعية عن سببها الحقيقي وهو السنن الإلهية التي تحكم هذا الوجود يجعل من الظاهرات الاجتماعية ظاهرات لقيطة لا نسب لها ، ومن ثم يحاول كل عالم من علماء الاجتماع أن يجتهد في نسبة الظاهرة الاجتماعية إلى علة يراها هي المنشئة للظاهرة دون أثارة من علم . يقول د/ نبيل السمالوطي " يؤكد القرآن الكريم أن القوانين التي تحكم الكون المادي والاجتماعي ثابتة وفعالة تنطبق على كل الجماعات بغض النظر عن معايير الكم والكيف والحجم والقوة المادية أو الاجتماعية ، تلك المعايير البشرية التي تتسم بالنسبية والتاريخية والتغير . فوراء كل هذا تكمن سنن الله الحاكمة والضابطة للإنسان ومجتمعه وتاريخه"(٢). قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [غافر: ٨٢].

ومهما يكن من شيء فإن أوجست كونت " قد كرس جهدا للدعوة للعلم أكثر من اهتمامه بموضوع العلم"(٣). وهذا مما يؤخذ على أوجست كونت إذ كيف يجعل من علم الاجتماع سيد العلوم وقائدها المطاع ، ولم يحدد موضوع هذا العلم بكل دقة!

وعلى أية حال فإن الظاهرات الاجتماعية التي تتعلق بنشأة المجتمع واستقراره هي

---

(١) اتجاهات نظرية في علم الاجتماع د/ عبد الباسط عبد المعطي ص(١٠٨-١٠٩) بتصرف يسير / مرجع سابق

(٢) المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع دراسة في علم الاجتماع الإسلامي د/ نبيل السمالوطي ص(٥٦) دار الشروق جدة ط١/١٤٠٠هـ-١٩٨٠م

(٣) المرجع السابق ص(١٠٤)

الاستاتيك الاجتماعي عند أوجست كونت أي " الاجتماع الساكن الذي يفحص عن الشروط الدائمة لوجود المجتمع أي الأوضاع الملائمة له"(١). "وقد وصل كونت من تحليله الاستاتيكي إلى أن المجتمع يتكون من ثلاثة عناصر: الفرد ، والعائلة ، والدولة"(٢).

أولا: مكانة الفرد في الاستاتيك الاجتماعي عند أوجست كونت

إن الاستاتيك الاجتماعي يبدأ عند كونت بالأسرة " وقد استبعد الفرد من الدراسة السوسيولوجية، حيث ينبغي أن يتكون النسق- الاجتماعي- من عناصر متجانسة فقط، ولذلك فإن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الأساسية لا الفرد"(٣). " ولم يكتف كونت باستبعاد الفرد من الاستاتيك الاجتماعي بل زعم " أن الإنسان لا يمكن أن يتعقل ذاته إلا في علاقته بالأشياء"(٤).

ولكن هذا الاستبعاد على مستوي التنظير لا على مستوي الواقع؛ لأن أوجست كونت " قد لاحظ العلاقة بين المجتمع والفرد . وقد لاحظ تقاربا منتظما ومستمرا في أوجه النشاط التي يؤديها عديد من الأفراد في المجتمع ، ومع أن كل فرد يحيا حياته الخاصة فإن لديه ميلا تلقائيا للمشاركة في التقدم المشترك بين الجميع دون استشارة الآخرين، معتقدا أنه يطاوع دفعاته الخاصة. إن التسليم بأنه لا يمكن الفصل بين الفرد والمجتمع مسألة ضرورية وأساسية، وإنما يتم التمييز بينهما لأغراض التحليل المجرد"(٥).

ومع استحالة الفصل بين الفرد والمجتمع في الواقع ، ومع الأنشطة الإيجابية التي يقوم بها بعض الأفراد في مجتمعاتهم " فإن الفرد في ذاته لا يعتبر عنصرا اجتماعيا – عند كونت- فالقوة الاجتماعية مستمدة في حقيقتها من تضامن الأفراد واتحادهم

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم ص(٣٢٣) دار المعارف ط٤ /١٩٦٦م

(٢) علم الاجتماع ومدارسه د/ مصطفى الخشاب (١٤٠/١) مرجع سابق

(٣) نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ص(٥٥) مرجع سابق

(٤) مشكلات فلسفية مشكلة الإنسان د/ زكريا إبراهيم ص(٣٨) مكتبة مصر

(٥) نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ص(٥٥) مرجع سابق

ومشاركتهم في العمل وتوزيع الوظائف فيما بينهم . أما القوة الفردية الخالصة فلا تبدوا إلا في قوته الطبيعية –أي قوة الفرد– ؛ ولكن ليس لهذه القوة أية قيمة إذا كان الفرد وحيدا أعزل من الأسباب والوسائل التي تذلل له متاعب الحياة ، و لا قيمة كذلك لقيمة الفرد العقلية والأخلاقية ؛ فالأولى لا تظهر إلا بمشاركة غيرها من القوى واتحادها مع غيرها ، والثانية في نظره وليدة الضمير الجمعي والتضامن الأخلاقي في المجتمع"[١]. وأنت ترى أن أوجست كونت يسحق وجود الفرد لصالح المجتمع " فالفرد فكرة مجردة في نظر علم الاجتماع"[٢]. وبالتالي فالفرد لا وجود له إلا في إطار المجتمع لأن أوجست كونت " يعتنق مبدأ أرسطو بأن الإنسان حيوان اجتماعي بطبعه ، ومن ثم فالسبب الرئيسي لتفوق الإنسان على الحيوانات الأخرى نزعته الاجتماعية السامية"[٣] فالأفراد يولدون مزودين بميل غريزي نحو حياة الجماعة ، ومن ثم فالفردية لا تحقق الحياة الجمعية بأي حال ، وأن الفرد ليس عنصرا من عناصر المجتمع"[٤].

واستبعاد الفرد من النظرية الاجتماعية ليس مذهب كونت فحسب " فعلماء الاجتماع يميلون إلى التركيز على المجتمع كموضوع للدراسة ، تاركين الفرد موضوعا لدراسة علم النفس. لذلك فإننا نتوقع عدم وجود نماذج سوسيولوجية عديدة تتناول الإنسان في المجتمع"[٥]."

ومما ينقض هذا الأساس الكونتى ويكر عليه بالبطلان أن الفرد حقيقة لا يمكن

---

(١) علم الاجتماع ومدارسه د/ مصطفى الخشاب (١/١٤٠-١٤١) مرجع سابق

(٢) علم الاجتماع د/ عبد الحميد لطفي ص(٢٨٤) دار المعارف بدون تاريخ

(٣) تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية د/ حسن شحاته سعفان ص(١٤٩) بتصرف يسير/ دار النهضة العربية ١٩٦٢م

(٤) ينظر: أوجست كونت ص(١١٢) بتصرف كبير مرجع سابق

(٥) مقدمة في علم الاجتماع أليكس إنكلز ص(١٣١) ترجمة د/ محمد الجوهري وآخرين دار المعارف ط٥/١٩٨١م

تغافلها ، أو التغاضي عنها، أو تجيرها لصالح المجتمع ، وأن الفرد متى توفرت له الإرادة والعزيمة فإنه قد يغير المجتمع بأسره " فالإنسان خلق ليعيش على هذه الأرض ، وليس في وسع الذات البشرية أن تظل محصورة في دائرة الفكر أو النية أو التصور؛ بل لابد من أن تجيء لحظة نحسم فيها أمرنا ، ونقذف بأنفسنا إلى العالم لكى نحقق ذواتنا في صميم الواقع الخارجي"[(١)]. وأن الحجة التي يتذرع بها كونت التي يقول فيها "إن فهم الكل يمكن التوصل إليه بطريقة أفضل من فهم الأجزاء حجة واهية؛ لأن المجتمع إنما يتكون أول ما يتكون من أفراد، ومن هنا تكون دراسة نفسية الفرد هي التي تكشف عن نفسية المجتمع، أو كما قالوا إن الإنسان هو الذي يفسر الإنسانية وليس العكس كما تصور كونت"[(٢)].

إن كونت انطلق من الكل ليفهم الجزء، حيث انطلق من المجتمع ليفهم الإنسان ولم ينطلق من الإنسان ليفهم المجتمع فلم يصل إلى شيء سوى أن الفرد ترس في عجلة المجتمع لاوجود له بدونها، ولا عمل له إلا من خلالها، ولا يستطيع أن يتخلص من قيودها، أو يحاول تغييرها وبهذا تذوب شخصية الفرد تماما عند كونت في لجة المجتمع فلا تحس منها من أحد أو تسمع لها ركزا. أما نظر ة الإسلام للإنسان فإنها نظرة فريدة متميزة " فإن الله – تعالى– قد خلق كل كائن إنساني كشخص فريد متميز ،ليس أي فرد منهم بديلا عن سواه أو تكرارا له على لوحة الزمان. كل كائن بشري له قصته الخاصة التي يرويها خلال سبحاته في نهر الحياة ، ويكشف سبيله إلى الفوز والخلاص؛ ولذا فإن كل فرد منهم قد زود بخصائص وسمات متميزة ، وإمكانيات رحبة لتطوير ذاته. لا مراء في أن الظروف الاجتماعية لها تأثيرها ودورها الذي تلعبه في هذا كله ؛ ولكن كعامل ثانوي وليس كعامل أصيل ووحيد"[(٣)].

---

(١) مشكلات فلسفية مشكلة الإنسان د/ زكريا إبراهيم ص(٣٩) بتصرف يسير

(٢) بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي ص(٤٥) مرجع سابق

(٣) نحو علم اجتماع إسلامي د/ محمد الغزالي ص(١٥)ترجمة د/ حسن الشافعي إحياء ط١/ ١٤٤٥هـ – ٢٠٢٤م.

"فإنسان القرآن والسنة" روح وجسد ، ودنيا وآخرة ، ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ،ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء"[١].

"والإنسان في عقيدة القرآن هو الخليفة المسؤول بين جميع ما خلق الله ،يدين بعقله فيما رأى وسمع، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب، فلا تدركه الأبصار والأسماع . والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد ، أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا ، وصدق النية فيما أحسنه واتقاه"[٢].

وأنت ترى أن إنسان القرآن والسنة مخلوق مكرم له استقلاليته ، وله حرمته وكرامته ، ولا يصح تجيير الفرد لصالح المجتمع ، ولا تجيير المجتمع لصالح الفرد قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠] يقول الإمام الآلوسي " أي جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ذوي كرم أي شرف ومحاسن جمة لا يحيط بها نطاق الحصر"[٣]. وقد ذكرت الآية الكريمة جملة من مظاهر التكريم حيث كرم الله بني آدم بالعقل، وحملهم في البر على الدواب، وفي البحر على السفن، ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا. وهذا التفضيل تفضيل من حيث أصل الخِلقة، الأفراد فيه جميعا متساوون. أما من حيث المواهب والقدرات فالأفراد متفاوتون فمنهم من يستجمع في ذاته صفات الأمة ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] ومن ثم يقود المجتمع إلى ما فيه صلاحه وفلاحه، ومنهم من هو دون ذلك يعيش لنفسه أو يعيش كيفما اتفق! والنبي صلى الله عليه وسلم وكأنه يرد على أوجست كونت يطالب الأفراد أن لا

---

(١) الإنسان في القرآن / عباس محمود العقاد ص(٩) الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٩٦م

(٢) المرجع السابق ص (١٠)

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني الإمام شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي (١١٢/٨) تحقيق علي عبد الباري عطية دار الكتب العلمية – بيروت ط١، ١٤١٥ هـ

يسلموا أو يستسلموا للقرارات الاجتماعية إذا كانت على غير هدي يقول « لا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاؤوا فَلاَ تَظْلِمُوا"(١). وعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ خِيَارٍ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مَحْصُورٌ فَقَالَ إِنَّكَ إِمَامُ عَامَّةٍ وَنَزَلَ بِكَ مَا نَرَى وَيُصَلِّي لَنَا إِمَامُ فِتْنَةٍ وَنَتَحَرَّجُ فَقَالَ الصَّلَاةُ أَحْسَنُ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ فَإِذَا أَحْسَنَ النَّاسُ فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ وَإِذَا أَسَاءُوا فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ»(٢). ويتضح من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ومن توجيه سيدنا عثمان رضى الله عنه أن شخصية الفرد لا تنسحق لصالح المجتمع، وأن الشخص لابد أن يكون له موقف من أي ظاهرة اجتماعية ناقدا ومقوّما لا تابعا ومقلدا .

ثانيا: مكانة الأسرة في الإستاتيك الاجتماعي عند أوجست كونت

إن الأسرة هي أول لبنة في الاستاتيك الاجتماعي (البناء الاجتماعي) عند أوجست كونت ولذا أولاها عناية خاصة حيث عرّف الأسرة وبين وظائفها شأنه شأن علماء الاجتماع الغربي فقد عرّف علماء الاجتماع الغربي الأسرة الإنسانية بأنها " جماعة اجتماعية بيولوجية نظامية تتكون من رجل وامرأة (يقوم بينهما رابطة زواجية مقررة) وأبنائهما ، ومن أهم الوظائف التي تقوم بها هذه الجماعة ، إشباع الحاجات العاطفية ، وممارسة العلاقات الجنسية، وتهيئة المناخ الاجتماعي الثقافي الملائم لرعاية وتنشئة وتوجيه الأبناء"(٣). " ولم يخرج أوجست كونت عن هذا التعريف للأسرة ولذا يعرفها بأنها" اتحاد له طبيعة أخلاقية"(٤). "وتتمتع بدرجة خاصة من الوحدة ، وبطابع أخلاقي يميزها عن

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه من حديث حذيفة بن اليمان كتاب البر والصلة باب الإحسان والعفو قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه(٣٦٤/٤) (٢٠٠٧)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الآذان باب بَاب إِمَامَةِ الْمَفْتُونِ وَالْمُبْتَدِعِ(١٤١/١)(٦٩٥)

(٣) قاموس علم الاجتماع ص (١٧٦) مرجع سابق

(٤) علم الاجتماع ومدارسه الكتاب الأول تاريخ التفكير الاجتماعي وتطوره (١٤١/١) مرجع سابق

الوحدات الاجتماعية الأخرى"[١]." فالأسرة " هي الوحدة الاجتماعية ،وأوثق الجماعات حتى إن تسميتها اتحادا أصح من تسميتها اجتماعا، فيها تظهر البذور الأولى للاستعدادات التي تعين المجتمع، وفيها يتعلم الفرد أن يجاوز نفسه، ويسود التعاطف على الغرائز الشخصية. فهي ضرورية كتمهيد بين الفرد والمجتمع من وجهين: أحدهما أنها تلائم ملائمة طبيعية بين الطباع والأخلاق المختلفة الناشئة من استعدادات مختلفة فإن الاجتماع يقتضي تنوع الأفراد واتفاقهم في آن واحد ؛ والوجه الآخر أن الأسرة هي المدرسة التي تولد فيها العواطف الاجتماعية متمثلة في التضامن الذي يبدو في التعاون على تربية البنين ، وفي الطاعة التي تبدو في انصياع البنين لأوامر الوالدين الرامية إلى قمع الأنانية ، وفي الاقتصاد الذي يبدو في تدبير التراث العائلي احتياطا للمستقبل"[٢].

" وقرر كونت مبدأ خضوع المرأة للرجل مع الاعتراف بسموها من الناحية العاطفية ، والوجدانية الضرورية للاستقرار في حياة الأسرة . وتكلم عن الزواج واعتبره استعدادا طبيعيا عاما وهو الأساس الأول لكل مجتمع . وكل عامل من شأنه أن يضعف من الزواج أو يقلل من أهميته فإنه بمثابة عامل هدم لنظام الأسرة الطبيعي ولنظام المجتمع ولذا فهو لا يقبل فكرة الطلاق ويعتبرها من عوامل الإخلال بنظام الحياة الأسرية بصفة خاصة ، وحياة المجتمع بالإجمال"[٣]. "والأسرة عند كونت تقوم بوظيفتين الأولى: الوظيفة الجنسية "وهي الميل المتبادل بين الزوجين"[٤]. والثانية: الوظيفة العاطفية " وهى التنشئة الاجتماعية ، وتعليم الأخلاق والقيم اللازمة لبناء المجتمع مثل التعاون ، والطاعة ، وقمع الأثرة والأنانية"[٥].

---

(١) نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ص(٥٥) مرجع سابق

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة د/ يوسف كرم ص (٣٢٤) مرجع سابق

(٣) علم الاجتماع ومدارسه (١٤١/١) مرجع سابق / وينظر: أوجست كونت ص(١١٣) مرجع سابق

(٤) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة

(٥) بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي ص(٤١)مرجع سابق

إنه مما يجب قوله في سياق الرد على أوجست كونت أن نظرته للأسرة نظرة ضيقة ولا ريب ؛لأنه ينطلق من المادة والعلمنة في النظرة إلى الأسرة، حيث إن الأسرة عنده مكونة من زوجين وأبناء فقط. فأين الأبوان؟ وأين الأخوة؟ وأين الأقارب من الأعمام والعمات، والأخوال والخالات؟ أين كل هؤلاء ؟ أين البر والصلة التي أوجبها الإسلام بين هؤلاء جميعا " فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَاكِ لَكِ " ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[1]. [محمد: ٢٢-٢٤]

وبالتالي فإن الأساس التي تقوم عليه الأسرة عند أوجست كونت هو أساس مادي علماني حيث إن الأسرة تقوم بوظيفتين:

الأولى: هي الوظيفة الجنسية وهى وظيفة مادية بحتة.

والثانية: هي التنشئة الاجتماعية وتعليم الأخلاق اللازمة لبناء المجتمع. وهذه الوظيفة لا بد أن تصل في النهاية إلى نتيجة مادية حيث إن كونت قد ابتدع قانونا سماه قانون التقدم العاطفي وفحواه " أن الفرد ينتقل من الأنانية إلى شيء من الغيرية، ولا تزال الغيرية تتقدم حتى تسود سيادة تامة . فمراحل نمو الغيرية عبارة عن اتحاد الأفراد في الأسرة ، واتحاد الأسرة لأجل الحرب وتعاون الجميع لأجل ازدهار الصناعة"[2].

وأنت ترى أن الأساس المادي العلماني الذي تقوم عليه الأسرة عند أوجست

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (١٩٨٠/٤)(٢٥٥٤)

(٢) الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص(١٠٥) مرجع سابق

كونت أساس واه لا يسمن ولا يغنى من جوع ،فهو يجعل من الأسرة شركة اقتصادية، فهي مترابطة متماسكة مادام هناك ربح ، ومتراجعة مضمحلة متلاشية إذا منيت بشيء من الخسارة وليست الأسرة كذلك فإنها في الإسلام تقوم على أسس ثلاثة:

الأساس الأول: السكن والمودة والرحمة ، وتبتدئ تلك المودة بين الزوجين وتبقى الزوجية ما بقيت تلك المودة"[١]. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١] يقول الشيخ الطاهر بن عاشور "فإن المودة وحدها آصرة عظيمة وهي آصرة الصداقة والأخوة وتفاريعهما، والرحمة وحدها آصرة منها الأبوة والبنوة ، فما ظنكم بآصرة جمعت الأمرين وكانت بجعل الله تعالى وما هو بجعل الله فهو في أقصى درجات الإتقان"[٢].

الأساس الثاني: " العدالة، وهى حق لكل من الزوجين على الآخر، وحق للزوجة على زوجها بشكل خاص"[٣].

الأساس الثالث: التكافل الاجتماعي في داخل الأسرة ،فالفقير العاجز تكون نفقته على الغني القادر، والضعيف يعاونه القوي، والغني إذا مات ورثه قريبه الذي يكون عليه أن ينفق عليه إذا كان فقيرا لأن الغنم بالغرم والحقوق متقابلة"[٤].

وأنت ترى أن هذه الأسس الإسلامية للأسرة أسس إيمانية جلها معنوي وبعضها مادي ولا حياة لها إلا بالإيمان بالله ورسوله الذي دعا أوجست كانت إلى طرده من العلوم الاجتماعية يقول الإمام محمد أبو زهرة "المجتمع في الإسلام مجتمع معنوي أي أن

---

(١) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام الإمام محمد أبو زهرة (١/١١٥) هدية مجلة الأزهر لشهر ذي القعدة١٤٢٥هـ

(٢) التحرير والتنوير الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (١/٦٤٤)دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس ١٩٩٧ م

(٣) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام (١/١١٦) مرجع سابق

(٤) المرجع السابق (١/١١٧)

العلاقات الاجتماعية تبنى فيه على الروابط الأدبية من تواد وتراحم لا على أساس من العلاقات المادية فقط فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[(١)]. ولا شك أن العلاقات المعنوية التي تقوم على المودة والرحمة هي التي يقوم عليها بنيان الجماعات، وهى الروابط التي تربط آحاد الناس ببعضهم"[(٢)]. ولذا فهو مجتمع " متماسك غير قابل لأن تتداعى لبناته، مترابط الأجزاء بما لا يقبل الانقطاع مادام يغذى بالروح وبالدين"[(٣)]. فالروابط المعنوية هي الأساس في بنيان الأسرة وتماسكها ، واستمراريتها وانسجامها ، وقد عمد الإسلام إلى الروابط المادية التي لابد منها لبناء الأسرة فهذبها وخفف من غلوائها ،وربطها بغايتها الإيمانية فالمسألة الجنسية جعل منها عبادة يتقرب بها الزوجان إلى الله سبحانه، وربطها بالثمرة المرجوة وهي النسل حتى تعمر الأرض و تتواصل الأجيال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»[(٤)].

وفي مسألة النفقة جعلها الإسلام أفضل قربة يتقرب بها الزوج إلى الله سواء كانت النفقة على زوجه ففي وصية النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضى الله عنه "وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ حَتَّى اللُّقْمَةُ الَّتِي تَرْفَعُهَا إِلَى فِي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (١٩٩٩/٤) (٢٥٨٦)

(٢) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام (٣٩/٢) مرجع سابق

(٣) المرجع السابق (٤٠/٢)

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه من حديث حذيفة كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف(٦٩٧/٢)(١٠٠٥)

امْرَأَتِكَ"[١]. أو كانت النفقة على أولاده فإنها من أفضل الصدقة والتقصير فيها من أعظم الإثم " حدثنا شُعْبة عن أَبي إسحق سمعتُ وَهْب بن جابر يقول: إن مولى لعبد الله بن عَمْرو قال له: إنِي أُريد أَن أقيمَ هذا الشهرَ ها هنا ببيت المقدس؟، فقال له: تركتَ لأهلك ما يقوتُهُمْ هذا الشهر؟، قال: لا، قال: فارْجعْ إلى أَهلك فاتْرُكْ لِهِم ما يَقُوتُهم، فإني سمعت رسول الله –صلي الله عليه وسلم –يقول: "كَفَى بالمرء إثْماً أن يُضيع منْ يَقُوتُ"[٢].

أما الزواج الذي يرى فيه كونت استعدادا طبيعيا، فلم يقل لنا كونت على أي أساس يكون الزواج، وتحت أي مظلة يلتقي الرجل بالمرأة: وإن كانت نظرية كونت الاجتماعية تجعل من الوضعية المنطقية ركنا ركينا وأساسا متينا لكل بناء اجتماعي . أما الإسلام فقد جعل عقد الزواج ميثاقا غليظا، كالميثاق الغليظ الذي أخذه الله على الأنبياء قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢١] وقال تعالى في الأنبياء ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

يقول العلامة أبو السعود في تفسير آية النساء "أيْ أخذْنَ منكم عهداً وثيقاً وهو حقُّ الصحبةِ والمعاشرةِ أو ما أوثق اللَّهُ تعالى عليهم في شأنه بقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٩٩] أو ما أشار إليه النبيِّ صلَّى الله عليهِ وسلم

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الوصايا باب الوصايا وقول النبي صلى الله عليه وسلم وصية الرجل مكتوبة عنده(٣/٤)(٢٧٤٢)

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما (٣٣٢/٦)(٦٨٤٣) وقال الشيخ أحمد محمد شاكر إسناده صحيح، ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٧: = ٤٦٧) من طريق الطيالسي. ورواه الحاكم في المستدرك (٤: ٥٠٠ – ٥٠١) في قصة، مطولاً بأطول مما هنا، من طريق عبد الرزاق عن معمر عن أبي إسحق، وقال: "صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه". ووافقه الذهبي

بقوله أخذتموهن بأمانة الله واستحللم فروجَهن بكلمة الله تعالى"[١].

أما عن خضوع المرأة لزوجها خضوعا تاما مع سموها من الناحية العاطفية والوجدانية فهذا من أوجست كونت يعد تطبيقا عمليا لنظريته الاجتماعية التي أسقط منها الفرد لصالح المجتمع، وهنا يسحق إرادة الزوجة لصالح زوجها يقول الإمام محمد أبو زهرة " وإذا كانت القوانين الأوربية تبنى نظم الزواج فيها على إدغام إرادة المرأة في الرجل، فالإسلام يبقى شخصية المرأة كاملة ولكن يفرض التعاون بينهما ، ويلزم كلا بما عليه من واجبات مشتقة من العدالة ومن الفطرة الإنسانية ،وإن تبرعت المرأة بالمعاونة المالية لزوجها فبطيب نفسها ،وإن تركت مهرها أو بعضه فإن ذلك يكون بطيب نفسها"[٢]. وقد قال تعالى في ذلك ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾ [النساء: ٤].

أما عن رفض أوجست كونت للطلاق لأنه يخل بالأسرة فهذا يتسق تماما مع النظرة المادية العلمانية للأسرة "فمثل المجتمع المادي–الذي يدعو إليه كونت– الذي يُبنى على الاقتصاد أو على الاجتماع في مكان كمثل الأحجار المتراصة التي يجاور بعضها بعضا من غير ارتباط وثيق بين أجزائها ، وإنه مهما يكن فيه من تنسيق هندسي لا يمكن أن يكون متلاحما متصلا، وإنه ينهار لأقل عاصفة تثور"[٣]. إن الطلاق جعله الإسلام آخر الحلول التي قد يُلجأ إليها ، ولكن لابد منه إذا كان طرفا الأسرة متخالفين متنابذين متباغضين ؛ فهل يستقيم أن يجمعهما مخدع واحد، إلا إذا كانا من الجمادات التي لا حياة فيها ولا مشاعر! ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود العمادي محمد بن مصطفى (١٥٩/٢)دار إحياء التراث العربي – بيروت والحديث جزء من خطبة الوداع التي رواها مسلم عن جابر بن عبدالله كتاب الحج باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم (٨٨٦/٢) (١٢١٨)

(٢) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام (٣١/٢) مرجع سابق

(٣) المرجع السابق (٣٩/٢)

حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ [النساء: ١٣٠].

ثالثا: التصور الكونتي للدولة

" إن المجتمع يشكل كيانا واضحا بذاته– عند كونت– ويسبق بذلك وجود الفرد . إنه (أي المجتمع) هو الصانع الحقيقي للحضارة الإنسانية . فالفرد لا يبتدع نظم المجتمع وعاداته وأخلاقياته، تماما كما أنه لا يخترع لغة التخاطب، وإذن فالفرد في علاقته بالمجتمع لا يساوى شيئا، وإنه لا يتمتع بحقوق بقدر ما يتعين عليه من أداء واجبات معينة.

أما السلطة فإنها تمثل شيئا ضروريا لأنها هي التي تجبر الفرد على مراعاة التقاليد في سلوكه وتصرفاته"(١). وأنت ترى أن أوجست كونت يرى ضرورة وجود نظام سياسي ، حيث إن " النظام السياسي طبيعي لأن أي مجتمع لا يمكن له البقاء دون حكومة ، والحكومة ممكنة نظرا لوجود رغبة واسعة في الحكم والقيادة"(٢). " ووجود الحكومة " دليل على تقدم المجتمع ؛ وهذا التقدم مرهون بنظام هذه الهيئة، ومبلغ انقياد الأفراد لها، ومدى سلطتها عليهم. ووظيفة الحكومة في نظره تقوم في تحقيق مبدأ التضامن في المجتمع والحرص على وحدته. ومعنى ذلك أن وظيفتها لا تكون مقصورة على المصالح المادية فحسب بل تشمل كذلك الناحية الروحية ...، فلا يمكن إصلاح المجتمع في نظره مالم تجمع الحكومة بين الوظيفتين الزمنية والدينية، وما لم تتمتع بسلطتيها الزمنية والروحية معا"(٣). ولكي لا يسرح بنا الخيال بعيدا فنرى من أوجست كونت أصوليا عتيدا يرى جمع السلطتين الزمنية والدينية في يد الحكومة السياسية؛ فدينه الذي يريد مزواجته بالسياسة هو الدين الإنساني الذي ليس بينه وبين أهواء السياسة وألاعيبها كبير فرق كما سيأتي البيان. لأن أوجست كونت يرى أن السياسة يجب "أن لا تكون قائمة على أفكار

(١) الفكر الاجتماعي نظرة تاريخية عالمية هايترموس ص(٢٦) ترجمة د/ السيد الحسيني وآخرين سلسلة علم الاجتماع المعاصر كتاب رقم (٣٦) ط١ /١٩٨٠م

(٢) نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ص(٥٦) مرجع سابق

(٣) علم الاجتماع ومدارسه (١/١٤٤) مرجع سابق

ميتافيزيقة لاهوتية ؛ بل على أسس علمية وضعية مستنيرة ...، وأن وجود مجتمع بلا حكومة لا يقل في استحالته عن وجود حكومة بلا مجتمع"[١].

"إن الخاصية الجوهرية لكل مجتمع هي تنوع الأعمال وتناسقها. ولهذه الخاصية أساس هو جملة القوى الاجتماعية من مادية وعقلية وخلقية؛ ولها مدبر هو السلطة، ولها رباط موحد هو الدين؛ فالقوة المادية تقوم على الكثرة والثروة، والقوة العقلية ترجع إلى العلماء والكهنة، والقوة الأخلاقية مزية المرأة التي هي أكبر عامل على نمو العواطف الغيرية؛ والسلطة ضرورية لكل مجتمع والدين كذلك"[٢]. أي ضروري، إذن لا بد أن يكون في المجتمع نظام سياسي، ونظام تربوي، ونظام اقتصادي وقرر كونت أن يكون هو النظام الرأسمالي إذ يرى أنه هو النظام الاقتصادي الأمثل يقول كونت" إن المجتمع الإنساني يعيش على التنظيم أكثر مما يعيش على الأيديولوجيات، وأن أفضل صورة للحياة الاقتصادية والسياسية هي بالتالي الرأسمالية، وبالذات الرأسمالية الأوربية، والتي هي بنظره تتويج للتاريخ التطوري الإنساني"[٣]. "ولنقض هذه الأطروحة الكونتية يجب القول بأن النظام الرأسمالي ليس النظام الأمثل لإصلاح المجتمع "لأن الفرد هو المالك الوحيد لما يكتسب ولا حق فيه لغيره، وله أن يتصرف فيه وفق ما يشاء ويرضى، ومن حقه أن يحتكر من وسائل الإنتاج كل ما تصل إليه يده، وله ألا يصرفها إلا في الوجوه التي تعود عليه بالمنفعة، فهذه النظرية تبتدئ من الأثرة، وتنتهى إلى الحد الأقصى من الأثرة وحب الذات الذي يقضى على كل ما لابد منه لسعادة النوع البشري وفلاحه من صفات الإنسان وطبائعه الشريفة"[٤]. لأن المجتمع حينئذ ينقسم إلى طبقتين طبقة فاحشة

---

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية ص(١٤٨-١٤٩) بتصرف

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ص(٣٢٥) مرجع سابق

(٣) الأيديولوجيا وعلم الاجتماع جدلية الانفصال والاتصال د/ وسيلة خزار ص(١٣٢) منتدي المعارف ط١/بيروت ٢٠١٣م

(٤) أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة الأستاذ أبو الأعلى المودودي ص(٩-١٠) ترجمة محمد عاصم الحداد

الغنى والثراء، وطبقة من ذوي الفقر المدقع الذين لا يستطيعون تلبية حاجاتهم الضرورية ومن ثم تنعدم روح التعاطف والمواساة والتكافل، ويزول الفرق بين البيع والربا، والتجارة والربا كل منهما يستلزم الآخر في هذا النظام ولا يترقى إلا به فلولا الربا لتداعى النظام الرأسمالي"(١).

وأنت ترى أن النظام الرأسمالي الذى اعتمده كونت مبنى على الهوى، ولم يستند لا إلى عقل ولا إلى نقل " لأن المجتمع الغربي الذي استقل عن الدين ، وأخذ لنفسه الحرية الفردية في النظام العلماني ، كان في حيطة مستمرة من وضع قيود يخشى من وضعها الحد من هذه الحرية. والنظام الرأسمالي كان وليد هذه الحيطة في وضع القيود في ممارسة الحرية الفردية في مجال الاقتصاد، رغم أن ذلك أدى إلى نتائج سيئة أضعفت الروابط الاجتماعية في المجتمع"(٢).

لقد بين القرآن الكريم خطر هذا النظام الرأسمالي على المجتمع ، وأن تركز الثروة في يد ثلة قليلة في المجتمع تفعل بها ما تشاء دون حسيب أو رقيب من شأنه أن يزرع الأمراض النفسية من الحقد، والحسد، والبغضاء والكراهية، والأثرة، وحب الذات، التي لا تبقى ولا تذر لدى الفقراء، وهذا سيؤدى إلى إشاعة الجريمة وتفكك المجتمع وانهياره قال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧].

يقول الإمام ابن كثير " أي: جعلنا هذه المصارف لمال الفيء لئلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها، بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئا إلى الفقراء"(٣).

---

(١) ينظر: المرجع السابق ص(١٠) وما بعدها

(٢) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ص(٣٣) مرجع سابق

(٣) تفسير القرآن العظيم أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (٦٧/٨)تحقيق سامي بن محمد سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

ومهما يكن من شيء فإن أوجست كونت قد انتهى من دراسته للاستاتيك الاجتماعي إلى قانون عام هو قانون (التضامن) " وملخص هذا القانون أن مظاهر الحياة الاجتماعية يتضامن بعضها مع بعض، وتسير أعمال كل طائفة منها متسقة مع ما عداها، وتتضافر جميعها على حفظ المجتمع وصيانة حياته . فهي تشبه أجهزة الجسم الحي إذ يختص كل منها بوظيفة تختلف عن وظيفة ما عداها ؛ ولكن تتسق هذه الوظائف كلها بعضها مع بعض وتتضافر على حفظ الكائن وصيانة حياته"(١).

وهذا القانون الكونتى محض وهم لاوجود له في الواقع لأنه يخالف طبيعة الظاهرة الاجتماعية لأن الظاهرة الاجتماعية "من سنتها الاختلاف والتطور؛ فهي تختلف باختلاف المجتمعات، وتختلف في المجتمع الواحد باختلاف عصوره. ويبدو تطورها في المجتمع الواحد في صورة تيارات جديدة تنبعث من المجتمع وتحاول أن تغير النظم العتيدة، ولا تنفك هذه التيارات تتصارع مع القديم حتى يكتب لها التغلب عليه، ويسير عليها المجتمع في الواقع ونفس الأمر. ثم تنبعث تيارات أخرى تفعل ما فعلته التيارات السابقة وهكذا دواليك"(٢).

فالمجتمع الإنساني ليس مجتمعا ملائكيا مجبولا على الطاعة، ومنزها عن الشهوات والشبهات حتى يكون متسقا تمام الاتساق حتى إن الملائكة أنفسهم ينشأ بينهم حوار وجدال قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [ص: ٦٩] ولذا " ففي كل مجتمع إنساني بجانب النظم المقررة تيارات تطورية ترمى إلى تقويض هذه النظم واستبدال نظم أخرى بها. وهذه التيارات التطورية ليس بينها وبين النظم القديمة انسجام ولا توافق، بل هي والنظم القديمة على طرفي نقيض مع أن كليهما من مظاهر الحياة

---

(١) علم الاجتماع د/ على عبدالواحد وافي ص(١١٥) مرجع سابق وينظر أيضا محاضرات في مناهج بحث اجتماعي التاريخ والتأسيس د/ عفاف علي عبد المعتمد ص(٧٣)

(٢) المرجع السابق ص(١٠) بتصرف

الاجتماعية الحاضرة ومن عناصرها"[١]. "إن طبيعة المجتمع الإنساني أن يمور بأفكار واتجاهات متعارضة ومتخالفة، والظاهرات الاجتماعية كذلك فأين التضامن الذي يدعيه أوجست كونت؟ إن القانون الذي يجب أن يحكم الاستاتيك الاجتماعي هو قانون التدافع وليس قانون التضامن يقول تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١] يقول العلامة أبو السعود" الذين يباشرون الشر والفساد ﴿ بِبَعْضٍ ﴾ آخرَ منهم بردِّهم عما هم عليه بما قدر الله تعالى من القتل كما في القصة المحكية أو غيره ﴿ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ وبطلت منافعُها وتعطلت مصالحُها من الحرْث والنسل وسائر ما يعمُر الأرضَ ويُصلِحها"[٢]. إذن لولا قانون التدافع لانهار عالم المباني ، ولولاه أيضا لانهار عالم المعاني قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠] والمعنى" بتسليط المؤمنين على الكافرين في كلِّ عصرٍ وزمانٍ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل"[٣]. وبهذا يفصح الصبح لذي عينين وتتجلى الحقيقة بأن أوجست كونت أقام الاستاتيك الاجتماعي على أسس مادية علمانية واهية، وأن جلّ ما ذهب إليه خاطئ تمام الخطأ من منظور القرار العلمي الصحيح.

---

(١) المرجع السابق ص(١١٦)

(٢) إرشاد العقل السليم (٢٤٥/١) مرجع سابق

(٣) المرجع السابق (١٠٩/٦)

المبحث الثاني

الأسس العلمانية للديناميك الاجتماعي عند أوجست كونت

إن قضية التطور الاجتماعي قد شغلت حيزا كبيرا في فكر أوجست كونت حيث " يعتقد أنه لا سبيل إلى الشك في وجود قوانين خاصة بالتطور ...، فالمجتمع يتغير، وتغيره يخضع لقوانين مضطردة تشبه القوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية في العالمين غير العضوي والعضوي. ووجود هذه القوانين لا يفسح مكانا للتفسيرات الغائية اللاهوتية أو الميتافيزيقية. وسوف يشهد علم الاجتماع مصرع التفكيرين اللاهوتي والميتافيزيقي. بعد أن تم القضاء عليه نهائيا في مختلف فروع المعرفة الإنسانية"[(١)]. ولذا فإن موضوع الديناميكا الاجتماعية " هو الكشف عن هذه القوانين المطردة التي تهيمن على هذا الاستمرار ، والتي تحدد في مجموعها السير الأساسي للنمو الإنساني"[(٢)]. والعنصر الجوهري في علم الاجتماع التطوري عند كونت هو أن كل حالة من الحالات الاجتماعية تعد نتيجة ضرورية للحالة السابقة ومقدمة حتمية للحالة اللاحقة"[(٣)]. وهذا ما سيظهر بطلانه لاحقا، ويمكن بلورة رؤية أوجست كونت في الديناميك الاجتماعي في أربعة قوانين:

الأول: قانون التطور.

الثاني: قانون التقدم العقلي.

الثالث: قانون التقدم العملي.

الرابع: قانون التقدم العاطفي"[(٤)].

---

(١) دروس في الفلسفة الوضعية لأوجست كونت (٢/١٠) مرجع سابق

(٢) المرجع السابق (٢/١٢)

(٣) المرجع السابق (٢/١٠)

(٤) ينظر: تاريخ الفلسفة الحديثة ص(٣٢٥) مرجع سابق

أولا: قانون التطور

لقد آمن أوجست كونت بنظرية دارون للتطور، وأنه يعتقد "أن التطور الاجتماعي ما هو إلا استمرار للتقدم العام الذي يبدأ من مملكة النبات؛ فالسلسلة الاجتماعية الكبرى تتطابق مع سلسلة الكائنات الكبرى، وليس مع تتابع المراحل العمرية لكائن عضوي بسيط، ويعد هذا الافتراض عنصرا أساسيا في نسق فكري يؤكد التقدم المستمر"(١). " والتطور خاصية الإنسان لأنه من دون سائر الحيوان حاصل على قوى قادرة على التقدم المتصل؛ لكن تقدم الإنسانية لا يتجه نحو غاية مطلقة، والفلسفة الواقعية لا تعترف بالمطلق؛ بل نحو تكامل الحالات المكونة للحياة الاجتماعية، كما يتكامل الجنين بمروره بسلسلة معينة من الحالات"(٢). وبموجب هذه الخلفية الفكرية عرض أوجست كونت الديناميك الاجتماعي "كتاريخ خلوا من أسماء الرجال والشعوب، وكان عمله في هذا الصدد بمثابة اكتشاف نظام مجرد ، تتتابع فيه التغيرات الكبرى في الحضارات الإنسانية"(٣).

ولدحض قانون التطور الذي تبناه كونت في الديناميك الاجتماعي أقول " إن جميع الذين قالوا بنظرية التطور والارتقاء وعلى رأسهم داروين نفسه يعترفون بأن هذه النظرية هي فرض علمي يعوزه الدليل الحسي ، بل إن جوهر بحوث علماء التطور ، والارتقاء جميعا تشير كلها إلى أن أصول هذه النظرية وفروعها هي من باب الافتراض لا القطع ، والتقدير لا التأكيد"(٤).

وفي التأكيد على أن التطور لم يتجاوز كونه فرضية علمية لم تقم الأدلة على صحتها يقول دوركايم "ولو سلمنا جدلا مع كونت بأن هذا التطور موجود بالفعل؛ فإننا

(١) نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ص(٥٧) مرجع سابق

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ص(٣٢٥)

(٣) نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ص(٥٦)

(٤) الإسلام ونظرية داروين محمد أحمد باشميل ص(٤٨)

لا نستطيع الوقوف على حقيقته إلا بشرط أن يكون علم الاجتماع قد وُجد بالفعل . وحينئذ فإننا لا نستطيع جعل التطور مادة لبحثنا إلا إذا نظرنا إليه على أنه فرض من الفروض، لا على أنه ظاهرة حقيقة. فنحن إذن حيال فكرة شخصية بمعنى الكلمة ؛ وذلك لأنه ثمة وجود في الواقع لما يُطلق عليه كونت اسم تطور الإنسانية"(١). إذن نحن أمام فكرة شخصية لكونت وليس أدنى صلة بالواقع

ويقول الأستاذ العقاد: " وإذا رجعنا إلى مكان مذهب التطور من العلم لم نجد من يحسبه علما مفروغا من أصوله وفروعه، وأكبر أنصاره لا يدعي له أكثر من أنه صحيح في بعض ملاحظاته ومقارناته، ويجوز بعد ذلك أن يكون التطور قد حصل في جهات متعددة لا في جهة واحدة، وأن يكون مقارنا للارتقاء حينا ، ومقارنا للنكسة حينا آخر ، وإن كانت شواهد الارتقاء أكثر من ظواهر النكسات"(٢).

فقد ثبت " أن الاختيار الطبيعي كما تصوره دارون لا يسير على قاعدة منتظمة، وأن الصدفة عامل مهم في انتقاء الأفراد التي تعيش – أي القدر بالمفهوم الإسلامي – فليس البقاء للأصلح دائما؛ بل كثيرا ما يموت الأصلح ويبقى الضعيف. أعنى أن الطبيعة لا تحسن التمييز بين الأفراد التي تتركها والتي تفنيها"(٣).

وبهذا يتضح أن نظرية دارون نظرية لا تصح علميا ، ومادامت باطلة فكل ما بُنى على باطل فهو باطل إذن الأساس الدارويني الذى اعتمده أوجست كونت في الديناميك الاجتماعي أساس واه ولا دليل عليه

---

(١) قواعد المنهج في علم الاجتماع إميل دوركايم ص(٥٤) ترجمة د/محمود قاسم مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠م

(٢) عقائد المفكرين في القرن العشرين ص(٥٩) مرجع سابق

(٣) تصدع مذهب دارون والأثبات العلمي لعقيدة الخلق د/حليم عطية سوريال ص(٩٤) المطبعة الوطنية الحديثة ١٩٣٧م

ثانيا: قانون التقدم العقلي

يرى كونت أنه وصل إلى هذا القانون بعد أن استعرض تاريخ الإنسانية بأسره فكتب يقول في عام ١٨٣٩م "إن سبعة عشر عاما من التأمل المستمر في هذا الموضوع العظيم ومناقشته على كل الوجوه أجازت لى أن أوكد بكل ثقة وبدون أقل تردد أننا نرى دائما صدق هذه القضية التاريخية، تلك القضية التي يبدو لي أنها قائمة على برهان سليم أكثر من الحقائق العامة المسلم بها في أجزاء الفلسفة الطبيعية"(١). وأنت ترى أنه يزعم حتمية هذا القانون ويقينيته زاعما أن " العقل مرَّ فيه بحالات ثلاث: حالة لاهوتية، وحالة ميتافيزيقية، وحالة واقعية .

١ – ففي الحالة اللاهوتية (الدينية) كان البحث عن كنه الكائنات وأصلها ومصيرها، محاولا إرجاع كل طائفة من الظواهر إلى مبدأ مشترك. وقد تدرج في ذلك درجات ثلاث الدرجة الأولى كانت (الفيتشية)(٢). يضيف فيها إلى الكائنات الطبيعية حياة روحية شبيهة بحياة الإنسان. والدرجة الثانية: تعدد الآلهة، وهى أكثر الدرجات الثلاث تمييزا للحالة اللاهوتية يُسلب فيها عن الكائنات الطبيعية ما كان خُلع عليها من حياة ، ويضيف أفعالها إلى موجودات غير منظورة تؤلف عالما علويا. والدرجة الثالثة كانت التوحيد أي جمع كثرة الآلهة في إله واحد مفارق ، وفي هذه الحالة تتسع الشقة ويزداد التضاد بين الأشياء وبين المبدأ الذي تفسر به...، فخصائص الحالة اللاهوتية هي أن موضوعها مطلق، وتفسيراتها فائقة

---

(١) أوجست كونت ص(٨١) مرجع سابق

(٢) وهى الإيمان بالأفتاش مفردها "فتش" وتسمى أيضا البدود مفردها "بد" وتعنى الأشياء التي كانت الشعوب البدائية تعتبر أن لها قدرة سحرية ، أو قدرة غيبية غير مدركة بالحواس على حماية صاحبها أو مساعدته . إذن فهي كالأصنام والتمائم والأشياء الوثنية من حجارة وغيرها مما يؤمن أهل الأوثان بتأثيراتها الغيبية" ينظر كواشف زيوف ص (٤٠٨) مرجع سابق وبالتالي " فالديانة الفتشية هي التي تأله جميع الأشجار والحصى والمنابع بأن تنسب إليها قوة غيبية " ينظر منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية ص(٩٣) مرجع سابق

للطبيعة ، ومنهجها خيالي . هذا من الوجهة النظرية. أما من الوجهة العملية فقد كانت المعاني اللاهوتية أساسا متينا مشتركا للحياة الخلقية والاجتماعية"[١]. وأنت ترى أن أوجست كونت يقصد بالحالة اللاهوتية " أن تفهم الظاهرة الاجتماعية بنسبتها إلى قوة مشخصة مريدة خارجة عن الظاهرة نفسها كالآلهة والملائكة والشياطين ؛ كأن تفهم ظاهرة النمو في النبات بنسبتها إلى الله أو إله الإنبات"[٢]. أو أرواح النبات ، أو تنسب الظاهرة الاجتماعية إلى جمع من الآلهة يؤلفون عالما علويا ، أو تنسب الظاهرة إلى إله واحد متسام متجاوز للطبيعة. وهنا يعترف أوجست كونت بأن المعاني اللاهوتية كانت تمثل أساسا متينا لعلمي الأخلاق وعلم الاجتماع. وبهذا يتضح أن أوجست كونت ملحد موغل في الإلحاد وهذا هو الأساس الذي بنى عليه نظريته الاجتماعية في جانبيها الاستاتيكي والديناميكي.

٢ – " الحالة الميتافيزيقية " (الفلسفية) يرمي العقل فيها إلى استكناه صميم الأشياء وأصلها ومصيرها، ولكنه يستبدل بالعلل المفارقة عللا ذاتية يتوهمها في باطن الأشياء"[٣]. أي أن العقل " يذهب في تفسيره للظواهر بنسبتها إلى القوانين التي تحكمها، والأسباب المباشرة التي تؤثر فيها"[٤]. فأوجست كونت فسر هذه الحالة على ثلاث درجات كما في الحالة السالفة فاعتقد أنه يوجد " قوي بعدد طوائف الظواهر مثل القوة الكيمائية والقوة الحيوية ، ثم إرجاع مختلف القوي إلى قوة أولية هي الطبيعة، ثم جمع هذه القوي الميتافيزيقية في الطبيعة (وحدة الوجود) "[٥]. أي أن الطبيعة والعقل يحلان محل الإله في هذه المرحلة

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص(٣١٧-٣١٨) مرجع سابق

(٢) علم الاجتماع د/ على عبدالواحد وافي ص(١١٣) مرجع سابق

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة ص(٣١٨) مرجع سابق

(٤) علم الاجتماع ومدارسه (١/١٣٧)

(٥) تاريخ الفلسفة الحديثة ص(٣١٨) مرجع سابق

٣ – " الحال الواقعية:(العلمية) وفيها يدرك العقل امتناع الحصول على معارف مطلقة ؛ فيقصر همه على تعرف الظواهر واستكشاف قوانينها، وترتيب القوانين من الخاص إلى العام، فتحل هنا الملاحظة محل الخيال والاستدلال، ويستعاض عن العلل بالقوانين المطردة أي العلاقات المطردة بين الظواهر"[١]. وهذا هو أعلى مراتب اليقين عند أوجست كونت " فالمثل الأعلى لليقين عنده يتحقق في العلوم التجريبية ، وأنه يجب من ثمة العدول عن كل بحث في العلل والغايات"[٢]. وأنت ترى أن أوجست كونت قد "اعتبر علم الاجتماع بواسطة هذا القانون تاريخا للعقل الإنساني ، واعتبر الفكر الديني في جوهره هو الخطوة الأولى لنمو الإنسانية العقلي ، كما اعتبره أيضا الخطوة الأولى لنمو الفرد نفسه، وقد خرج الفكر المنطقي – فيما بعد – من العقائد الدينية في بطء وأناة"[٣]. وأنت ترى أن كونت " يعتبر الإنسانية جزء لا يتجزء، وأنها عبارة عن مجتمع واحد يخضع لنفس القانون في الوقت الذي نجد فيه مجتمعات جزئية مختلفة ؛ لأن المجتمع الإنساني ليس مجتمعا في صيغة المفرد"[٤]. والفكر الإنساني في رأى كونت انطلق من الدين وخرج منه رويدا رويدا حتى انتهى إلى الحالة الواقعية التي هي أعلى مراتب اليقين عنده ؛ ولكنها في الحقيقة أعلى مراتب البؤس والشقاء لأن المجتمعات العلمانية تقوم "على أساس الإشباع المادي فقط للإنسان مع إهمالها تماما للناحية الروحية والنفسية ،لأنها استبعدت الدين من مجال الحياة، وأقامت حضارة عوراء لا تنظر إلى الإنسان إلا بعين واحدة ،لذلك فقدت الرؤية الواضحة لهذا الإنسان، وحولته إلى خنزير يأكل

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة

(٢) المرجع السابق ص (٣١٧)

(٣) نشأة الدين النظريات التطورية والمؤلهة د/ على سامي النشار ص(١٩) دار السلام ط١/١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م

(٤) علم الاجتماع د/ عبدالحميد لطفي (٢٨٩) مرجع سابق

ويعمل ولا هم له وراء ذلك .مما دمر الإنسان هناك وأفقده سعادته"[(١)].

نقض قانون التقدم العقلي (الحالات الثلاث)

والذي ينعم النظر في قانون الحالات الثلاث يجد أن هذا القانون قد بُنى على الوهم . فمن الذي أطلع كونت على العقل البشرى في بداية أمره ، ومن أين استقي هذا اليقين؟! وهل صاحب كونت العقل البشري في مراحل تطوره من الحالة اللاهوتية حتى الواقعية فشاهد صيرورة قانونه ذاك رأى العين ؟! أم أن الأمر لا يعدو فرضا فرضه كونت ولم يُقم عليه أي دليل علمي ثم جعل منه حقيقة علمية يتغنى بها الدراونة في بلادنا حيث يقول إسماعيل مظهر"[(٢)]. إن قانون الدرجات الثلاث الذي كشف عنه الفيلسوف أوجست كونت لأكبر استكشاف وصل إليه العقل البشري في الطبيعة الإنسانية"[(٣)]. وقد اعتقد كونت اعتقادا خاطئا " بأن الدين – أي الدين الموحي به – أتى ليوضح أو يشرح الخصائص الموضوعية للظواهر، وهذا ليس صحيحا بالمرة ؛ إن الدين لم يأت ليخبرنا عن تركيب أو تحليل أية ظاهرة، ولكنه قد يتعرض للكون في صورته العامة كنتيجة مباشرة للخلق الإلهي وليس في هذا ما يمنع البحث للعثور على خواص

---

(١) احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام د/ سعد الدين السيد صالح ص(٢٣٨) مكتبة الصحابة الشارقة ط٧/١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

(٢) إسماعيل مَظْهَر (١٣٠٨ - ١٣٨١ هـ = ١٨٩١ - ١٩٦٢ م) إسماعيل مظهر بن محمد بن عبد المجيد بن إسماعيل، وجدّه لأمه محمد مظهر باشا: باحث مصري من علماء الكتّاب. من أعضاء المجمع اللغوي. مولده ووفاته في القاهرة. نشأ في بيت علم ووجاهة. وتعلم بالمدرسة الناصرية ثم الخديوية. وتركها. وأصدر وهو طالب (صحيفة) علمية. وانتسب إلى الحزب الوطني، فكتب في صحفه. وسافر الى انكلترة (١٩٠٨ - ١٩١٤) فدرس في جامعة لندن وجامعة أكسفورد. وعاد فقرأ طائفة من أمهات الكتب العربية وغيرها في بيته. وصنف كتبا كثيرة في مختلف العلوم ولاسيما الفلسفة كما ترجم عدة كتب عن الانكليزية وتوفي بالقاهرة" ينظر الأعلام (٣٢٧/١).

(٣) الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة د/ يحيى هاشم فرغل ص(١٦).

الظواهر"[١]. إن مما يجب ذكره في هذا المقام أن كونت قد أصدر حكما عاما يشمل كل الأديان البدائية والكتابية " وكان يجب عليه ألا يطلق أحكاما عامة على الدين إلا بعد دراسة مقارنة. ولو كان درس الدين الإسلامي لأدرك أنه لا يوجد دين يحض أتباعه على طلب العلم ، وإعمال العقل مثل الدين الإسلامي"[٢].

وينقض إميل دوركايم هذا القانون المزعوم فيقول:" ليس ثمة صلة بين هذا القانون الشهير الذي أطلق عليه كونت قانون الحالات الثلاث، وبين القانون السببي. وأكثر من ذلك فلو سلمنا بصحة هذا القانون فإنه ليس إلا قانونا تجريبيا، وليس من الممكن إلا أن يكون كذلك . وذلك لأنه ليس إلا نظرة عاجلة مجملة ألقاها أوجست كونت على المراحل التاريخية التي مرت بها الإنسانية. وإنه لمن التعسف كل التعسف أن يقول كونت بأن الحالة الثالثة هي آخر مرحلة من مراحل التطور الإنساني. إذ من الذي ينبئنا بأنه لن توجد حالة جديدة أخرى في المستقبل"[٣]. إذن قانون الحالات الثلاث لا علاقة له بقانون السببية ، فلم تكن الحالة اللاهوتية سببا في الحالة الميتافيزيقة ، ولم تكن هذه سببا في الحالة الواقعية. والقانون برمته نظرة متهورة غير مدروسة للتاريخ الإنساني، فليس هناك ما يمنع أن توجد حالات أخرى في المستقبل، وهذه طبيعة الاستقراء فليست قسمته حاصرة ،وليست دلالته قطعية

يقول العلامة الأخضري: ولا يفيد القطع بالدليل قياس الاستقراء والتمثيل"[٤].

"وتخيلُ كونت أن الإنسانية قد مرت فعلا بهذه المراحل المرتبة بعيد عن الصواب؛

---

(١) في الدين المقارن د/ محمد كمال جعفر ص(١٦٧) دار الكتب الجامعية ١٩٧٠م.

(٢) المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع دراسة في علم الاجتماع الإسلامي د/ نبيل محمد توفيق السمالوطي ص(١٢٧) دار الشروق جدة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

(٣) قواعد المنهج في علم الاجتماع ص(١٨٩) مرجع سابق.

(٤) بصائر أزهرية على شرح السلم المنورق للشيخ برهان الدين حسن القويسني ص (١٣٧) تحقيق د/ جمال فاروق ، كشيدة ط٢ /١٤٣٨هـ ٢٠١٧م.

لأن هذه المراحل قد توجد متزامنة في المجتمع الواحد حيث نجد من الناس من لا يؤمنون إلا بالتفسيرات الدينية، ومنهم من لا يؤمنون إلا بالتفسيرات العلمية، ومنهم من يخضعون الأمور لمنطق العقل فقط ... إذن فالزعم بأن الإنسانية كلها قد مرت في هذا الخط الصاعد هو زعم باطل"(١). ومما يقطع بخطأ كونت في قانونه هذا ما ثبت وجوده في فجر التاريخ وهى الحضارة المصرية القديمة التي أخذت بألباب العلماء والفلاسفة حيث إن " العلم المصري القديم قام على أساس لاهوتي ثابت قائم وهو ما نشاهده في علوم الهندسة التي بنت الأهرام والمقابر، وعلوم الطب التي حنطت الجثث لتخلد إلى الأبد ، وحتى يمكن أن تتعرف عليها أرواحها عند البعث! وهذا وحده (وقد حدث في فجر الإنسانية الأولى) يهدم تركيبة كونت الوضعية، وهذا معناه أن مرحلة التفكير الفلسفي ليست سابقة بالضرورة على مرحلة التفكير العلمي فالواقع أن الفلسفة هي نظريات العلم الذي تكمله وتقننه"(٢).

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز "الواقع أن الحالات التي يصورها كونت لا تمثل أدوارا تاريخية متعاقبة؛ بل تصور نزعات وتيارات متعاصرة في كل الشعوب ، وليست كلها على درجة واحدة من الازدهار أو الخمول في شعب ما، ولكنها تتقلب بها الأقدار بين بؤسى ونعمى ،ونحوس وسعود"(٣).

ومهما يكن من شيء فإن قانون الحالات الثلاث يغني بطلانه عن إبطاله وذلك لما يلى:

١ – " ليس بصحيح أن الإنسانية كلها تسير على وتيرة واحدة في فهم الأشياء وفي إدراك الظواهر وفي تطور هذا الإدراك. فالملاحظة السليمة ليست سواء ولم تكن

---

(١) بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي ص(٤٦) مرجع سابق

(٢) الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة في القديم والحديث ص(١٩٨-١٩٩) بتصرف يسير مرجع سابق

(٣) الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان د/محمد عبدالله دراز، ص (١٣٢) دار القلم ط٥/ ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

سواء في هذه الشؤون.

٢ – وليس بصحيح أن كل حقيقة سلك التفكير الإنساني في فهمها هذه السبل الثلاث مرتبة على الصورة التي ذكرها فمن الحقائق ما فهمه الإنسان فهما وضعيا في بادئ الأمر كبعض الحقائق الرياضية.

٣ – وليس بصحيح أن هذه الطرق وحدها هي التي تردد بينها التفكير الإنساني في فهم الأشياء. فتوجد طرق كثيرة اتبعها الإنسان المتحضر والبدائي في إدراك الظواهر متأثرا بنظمه وتقاليده وعقائده إلخ.

٤ – وليس بصحيح أن تطور الظواهر الاجتماعية لا يتأثر إلا بتطور التفكير وإنما الأصح أن يقال إن تطور التفكير في معظم مظاهره هو نتيجة لتطور الحياة الاجتماعية"[١].

٥ – الأولى أن يبدأ هذا القانون بالنظرة الوقوعية التي تقع في مبدأ الطريق لا في نهايته لأنها تمثل مرحلة الطفولة النفسية ، ثم نظرة التعليل بالمعاني لأنها تنبثق في النفس على إثر ذلك، ثم النظرة الروحية لأنها نظرة متجاوزة لهذا الكون إلى ما وراءه .ولذا يبدأ الترتيب الطبيعي المعقول بحاجة الحس، فحاجة العقل القانع ، فحاجة العقل المتسامي (الروح) "[٢].

٦ – وأخيرا وليس آخرا يعترف دوركايم بأن قانون كونت قانون عقيم فيقول: "إن مزيدا من التقدم لا يمكن أن يحدث طالما أصبح من المقرر أن قوانين المجتمع لا تختلف عن القوانين التي تحكم باقي الطبيعة، وطالما أن منهج الكشف عن هذه القوانين هو نفسه المنهج الذي تستخدمه العلوم الأخرى. وهذا ما يمثل إسهام كونت الحقيقي! "[٣]. وأنت ترى أن أوجست كونت قد ارتكب جملة من الأخطاء

---

(١) علم الاجتماع د/ على عبد الواحد وافي ص(١١٤-١١٥) بتصرف يسير مرجع سابق

(٢) ينظر: الدين ص (١٣٣-١٣٤) مرجع سابق.

(٣) علم اجتماع المعرفة د/ السيد عبد العاطي السيد ص (٢٦٥) دار المعرفة الجامعية ١٩٩٧م.

المنهجية التي تكرُّ على نظريته بالبطلان منها التوظيف العقائدي حيث جعل من نفسه معيارا للحقيقة وليس الحقيقة العلمية، ومنها أنه لم يلتزم بمبادئه الوضعية فقد غرق في الميتافيزيقا حتى أذنيه فيما ادعاه من دين جديد سماه دين الإنسانية، ومنها سقوطه في التعميمات. والتعميم يناقض المنهج العلمي، ومنها ادعاؤه بأن قانونه هذا ثابت مطلق، وأن طبيعة الإنسانية ثابتة وتمضى في خط واحد يتجه نحو الوضعية في مسيرة تقدمية"(١).

وبهذا يتضح أن قانون الحالات الثلاث الذي هو جوهر الديناميك الاجتماعي عند أوجست كونت إنما هو سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا

ثالثا: قانون التقدم العملي

ينبني هذا القانون على قانون الحالات الثلاث الذي ثبت بطلانه " فالحالة اللاهوتية تقابلها حالة عسكرية، وتقوم أهمية هذه الحالة فيما تطبّع عليه الناس من نظام واضطراد، وهما الشرطان الضروريان لكل كيان سياسي، ويقابل الحالة الميتافيزيقية فترة تؤول فيها السلطة إلى الفقهاء فيميلون بالحكم من الملكية إلى الديمقراطية، وتتحول العسكرية من هجومية إلى دفاعية، ويضعف الروح العسكري شيئا فشيئا ويقوى روح الإنتاج. ويقابل الحالة الواقعية الحالة الصناعية، يرجع فيها إلى القوى المنتجة تعيين نظام المؤسسات وتوزيع السلطات، فتحل المسألة الاجتماعية محل المسائل السياسية، ويسير العمال مع ميل الفلسفة الواقعية إلى تقديم الواجبات على الحقوق حتى يتم توفير العمل والنمو الروحي للجميع"(٢).

إن علم الاجتماع الغربي طبقا لقانون كونت هذا يقرر " أن التحرك التاريخي

---

(١) ينظر: منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية ص (٩٦-٩٧) مرجع سابق وينظر أيضا المذهبية الإسلامية في علم الاجتماع د/ صلاح الدين خليفة ص (٥٤) وما بعدها.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ص (٣٢٥-٣٢٦) بتصرف يسير مرجع سابق.

للنوع الإنساني دوما هو مثل الخط المستقيم المتجه إلى نقطة معينة تنتهي عندها الحركة، ويكتمل هدفها، مهملين كل الخطوط الأخرى الموازية، وتلك المتعددة الاتجاهات أيضا أو منكرين لوجودها أصلا، وبهذا التصور المصطنع غير الواقعي، المكتسح للتاريخ الإنساني فإنه يعد حكما ظالما قد صدر على سبيل التحكم على كل أحوال الماضي الإنساني"(١).

ومهما يكن من شيء فإن هذا القانون مبنى على قانون الحالات الثلاث الذي ثبت بطلانه وما بنى على باطل فهو باطل ، إضافة إلى ذلك فإن قانون التقدم العملي محض خيال حيث يزعم فيه كونت أن البشرية تطورت من الحالة العسكرية حتى الحالة الصناعية هكذا في خط صاعد بحيث إن كل حالة تزيل الحالة التي سبقتها. وهذا غير صحيح بل إن الواقع ينقضه فالملكيات، والديمقراطيات، والدول التي تقوم على المؤسسية موجودة حتى الآن وبصورة متزامنة، وليست متعاقبة كما يدعى أوجست كونت. وكم من ملكيات قد زالت، وقامت ملكيات أخرى على أنقاضها، وكم من ديمقراطيات تعثرت وأعادت بناء نفسها من جديد، وكم من مؤسسات اضملحت وتلاشت وقامت على أنقاضها مؤسسات أخرى تستطيع أن تتعامل مع الواقع الاجتماعي المتطور كل ذلك طبقا للقانون الإلهي ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

"والمعنى : أنه كما أنشأكم أطواراً تبتدئ من الوهن وتنتهي إليه فكذلك ينشئكم بعد الموت إذ ليس ذلك بأعجب من الإنشاء الأول وما لحقه من الأطوار ، ولهذا أخبر عنه بقوله : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ وذكر وصف العلم والقدرة لأن التطور هو مقتضى الحكمة وهي من شؤون العلم، وإبرازُه على أحكم وجه هو من أثر القدرة"(٢).

---

(١) نحو علم اجتماع إسلامي ص (٩٦-٩٧) مرجع سابق.

(٢) التحرير والتنوير ـــ الطبعة التونسية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور(١٢٨/٢١)دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – ١٩٩٧ م.

يقول العلامة ابن خلدون" إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده"(١).

ومما سبق يتضح أن حالة المجتمع مثل حالة الإنسان يبدأ من الضعف وينتهي إليه كل ذلك بعلم الله وقدرته، وليس الحال كما ذهب إليه كونت من أن المجتمع يبدأ عسكريا وينتهى مؤسسيا أي قويا

رابعا: قانون التقدم العاطفي

" الذي يمضي من الأنانية"(٢). إلى شيء من الغيرية ، ثم لا تزال الغيرية تتقدم حتى تسود سيادة تامة، فاتحاد الأفراد في الأسرة ، واتحاد الأسرة لأجل الحرب ، وتعاون الجميع لأجل ازدهار الصناعة ، تلك مراحل نمو الغيرية"(٣).

هذا القانون هو صلب علم الأخلاق عند كونت حيث يرى " أنه يجب على الفلسفة الواقعية أن تعمل على محو فكرة (الحق) الراجعة إلى أصل لاهوتي من حيث إنها تفترض سلطة أعلى من الإنسان، وحصر الأخلاق كلها في فكرة (الواجب) ذلك الميل الطبيعي إلى إخضاع النزعات الذاتية لصالح النوع أجمع بحيث يصير شعارنا (الحياة لأجل الغير)"(٤).

وأنت ترى أن هذا القانون كسابقيه محض خيال لعب برأس أوجست كونت لأن

---

(١) مقدمة ابن خلدون(٢٥٢/١) مرجع سابق.

(٢) إن ما نسميه بالميول الأنانية هو عادة تلك الميول التي تهدف إلى لذة فاعلها ، أما الميول الغيرية فهي التي تتخذ موضوعا لها لذة كائن مغاير لفاعلها " ينظر: التربية الأخلاقية إميل دوركايم ص(٢٠٥) ترجمة د/ السيد محمد بدوي مراجعة د/ على عبدالواحد وافي المركز القومي للترجمة ٢٠١٥م.

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة ص (٣٢٦) مرجع سابق.

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة.

التحول من الأنانية إلى الغيرية ليس قانونا ساريا، ولا أمرا غالبا لدرجة أن يتسائل دوركايم فيقول:" والحق أن لنا أن نتسائل، كيف يمكن أن يتم مثل هذا التحول الذي يتضمن في نهاية الأمر خلقا حقيقيا من العدم؟! ذلك بأن الحقيقة هي أنه لا التطور التاريخي يمكنه أن يستخلص من الإنسان، ولا التربية من الطفل إلا ما كان لديه من بذرة أو بادرة على الأقل؛ وإنه لمن الصعب أن تتصور الوسائل التي من الممكن أن يغدو بها الكائن الأناني الخالص قادرا على التنزه عن أغراضه الشخصية"(١).

إذن هذا التحول من الأنانية إلى الغيرية يحتاج إلى خلق من العدم كما يقرر دوركايم، وأن التطور التاريخي، والبعد التربوي لا تأثير لهما على هذا التحول الذي لن يحدث أبدا كما يدعي كونت "لأن الأنانية والغيرية في أساسهما مظهران يعيشان في نفس كل فرد جنبا إلى جنب، وهما مرتبطان ارتباطا وثيقا، ومن مظاهر كل حياة واعية"(٢).

وأنت ترى أن قانون التقدم العاطفي محض خيال، ولا أساس له من الواقع ؛ لأن التحول من الأنانية إلى الغيرية لا وجود له إلا في خيال أوجست كونت " والحقيقة أن هذين الشعورين لا يستمد أحدهما من الآخر على الإطلاق، وإنما يقوم كلاهما على أساس من طبيعتنا العقلية، ولا يعبران إلا عن وجهين لهذه الطبيعة يتضمن كل منهما الآخر ويكمله"(٣). لأن الإنسان له ميول يفعلها ليصل إلى لذة يريدها، ولن يفعل هذه اللذة لصالح غيره ، إلا بعد مكابدة ومجاهدة متواصلة للنفس حتى يصل إلى هذه الرتبة التي تكون فيها أفعاله لصالح غيره وليس لصالح نفسه وهذا إن حدث فإنما يكون عند فئة تؤمن بثواب الله في الآخرة وليس قانونا عاما كما يدعي أوجست كونت يقول تعالى في وصف الأنصار رضى الله عنهم ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ

(١) التربية الأخلاقية ص (٢٠٥-٢٠٦) مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق ص (٢١٣).

(٣) المرجع السابق ص(٢١٨).

إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩ ﴾ [الحشر: ٩]. يقول أبو السعود في معنى هذه الآية " كلام مستأنف مسوق لمدح الأنصار بخصال حميدة من جملتها محبتهم للمهاجرين ورضاهم باختصاص الفيء بهم أحسن رضا وأكمله"(١). ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور في معنى هذه الآية أيضا" وهذا ثناء عليهم بما تقرر في نفوسهم من أخوة الإسلام إذ أحبوا المهاجرين، وشأن القبائل أن يتحرجوا من الذين يهاجرون إلى ديارهم لمضايقتهم"(٢).

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَكَانَ كَثِيرَ المَالِ، فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ عَلِمَتِ الأَنْصَارُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَانِ فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطَلِّقُهَا، حَتَّى إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ، فَلَمْ يَرْجِعْ يَوْمَئِذٍ حَتَّى أَفْضَلَ شَيْئًا مِنْ سَمْنٍ وَأَقِطٍ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [ص: ٣٢] وَعَلَيْهِ، وَضَرٌ"(٣). مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَهْيَمْ(٤)». قَالَ: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ «مَا سُقْتَ إِلَيْهَا؟». قَالَ: وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: «أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ"(٥).» هذا هو الجيل الفريد الذي رباه النبي صلى الله عليه وسلم ، والذي خُلق

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢٨٨/٨) مرجع سابق.

(٢) التحرير والتنوير (٩١/٢٨) مرجع سابق.

(٣) أَيْ لَطْخاً مِنْ خَلُوق، أَوْ طِيبٍ لَهُ لَونٌ، وَذَلِكَ مِنْ فِعل العَرُوس إِذَا دَخَلَ عَلَى زوْجَته. والْوَضَرُ: الأَثَر مِنْ غَيْرِ الطِّيب" ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (١٩٦/٥) تحقيق: محمود محمد الطناحي وآخرين المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(٤) أَيْ مَا أَمْرُكُم وشَأْنُكم. وَهِيَ كَلِمةٌ يَمانيَّةٌ" ينظر المرجع السابق (٣٧٨/٤).

(٥) أخرجه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب إخاء النبي بين المهاجرين والأنصار (٣١/٥)(٣٧٨١).

خصيصا من أجل تبليغ الدعوة ونصرة الإسلام، فكان عمله للغير عن حب وإيثار منقطع النظير لم يتكرر في دنيا الناس حتى الآن. فالإيثار الذي جادت به نفوس الأنصار الزكية قوبل بعفة عالية من المهاجرين، والعامل المؤثر في الأمرين معا الإيثار والعفة هو الإيمان بالله الذي ينكره أوجست كونت، ويسرف في إنكاره .وبهذا تتهاوي قوانين أوجست كونت الحاكمة للجانب الديناميكي في نظريته الاجتماعية .

المبحث الثالث

دين الإنسانية عند أوجست كونت

إن أوجست كونت قد حارب الدين في نظريته الاجتماعية حربا لا هوادة فيها وتوقع بأن يُطرد الدين من العلوم الإنسانية والاجتماعية كما طُرد من العلوم الطبيعية ولكن كونت أدرك أخيرا بأن الفراغ الذي سيخلفه الدين، لم تسطع الفلسفة رغم بريقها، والأفكار الاجتماعية رغم شيوعها أن تحل محلَّ الدين أو أن تشغل الفراغ الذي خلفه فإذ به يقول متسائلا: "مقصودي أن أقنع سائر الذين يعدون الميتافيزيقا مبحثا جديرا بالدراسة ، بأنه يتحتم عليهم أن يتوقفوا عن عملهم مؤقتا، وأن يصرفوا النظر عن كل ما صنع حتى الآن، وأن يضعوا أولا السؤال التالي: هل من الممكن– على الإطلاق– قيام شيء كالميتافيزيقا؟"(١). هذا السؤال هو بيت القصيد في نظرية أوجست كونت الاجتماعية؛ فإذا كان الوجود الإنساني لا يستغنى عن الدين ، وليس في طوقنا أن نمحو الدين من الوجود فلنصنع دينا جديدا نصرف المجتمع إليه، ويحل محل الدين الذي يؤمن به المجتمع، وهذا عمل شبيه بما قام به أبرهة الأشرم عندما بنى كنيسته القليس في صنعاء ، وأراد أن يهدم الكعبة المشرفة من أجل أن يلزم الناس بالحج إلى كنيسته وكان من خبره ما كان"(٢). وسار أوجست كونت على نفس خطة أبرهة فاستبعد الدين الذي تدين به مجتمعه من نظريته الاجتماعية وراح يضع أسس دين ممسوخ سماه دين (الإنسانية) فمن أين استقي أوجست كونت دين (الإنسانية) هذا ؟

إن الذي يتعمق في شخصية أوجست كونت يجد أنها شخصية متضخمة تمكن منها

---

(١) الميافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين د/ محمود رجب ص(١١) ط٣ بدون تاريخ

(٢) يقول ابن هشام في سيرته "فأقام أبرهة باليمن. "القليس" أو كنيسة أبرهة: ثُمَّ إنَّ أَبْرَهَةَ بَنَى القُلَّيْسَ بِصَنْعَاءَ، فَبَنَى كَنِيسَةً لَمْ يُر مثلُها فِي زَمَانِهَا بِشَيْءٍ مِنْ الْأَرْضِ، ثُمَّ كَتَبَ إلَى النَّجَاشِيِّ: إنِّي قَدْ بَنَيْتُ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ كَنِيسَةً لَمْ يُبْنَ مثلُها لِمَلِكٍ كَانَ قَبْلَكَ، وَلَسْتُ بمنتهٍ حَتَّى أصرفَ إلَيْهَا حَجَّ الْعَرَبِ" ينظر: السيرة النبوية لابن هشام عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري(٣٧/١) تحقيق: طه عبد الرءوف، شركة الطباعة الفنية المتحدة

الكبر والعجب وبالتالي فهو شخصية متقلبة المزاج، قليلة التحمل لأدنى عارض يعرض لها في مسيرة الحياة. ومن ثم فإن أوجست كونت قد مرّ " بأزمة عصيبة كان من أسبابها هيامه بسيدة"[١]. تعرف إليها في عام ١٨٤٤م وتوفيت بعد سنتين؛ فاتخذ منها مثال (الإنسانية) وكان يتوجه إليها بالفكر والصلاة كل يوم، وصارت شيطانه الذي يوحي إليه ديانة (الإنسانية)[٢]. " إذن ديانة (الإنسانية) كانت انعكاسا لخلل نفسي رهيب حدث له إثر أزمة عاطفية حادة انتابته لموت عشيقته، فراح ينسج من ذلك الخلل النفسي دينا أراده دينا بديلا عن الدين القائم في مجتمعه يقول الدكتور السمالوطي "ارتبطت نشأة علم اجتماع الغربي ببعض النزعات العقائدية التي تعد إلحادية ووثنية من المنظور الإسلامي؛ فأوجست كونت الذي بدأ منطلقا من الفكر الديني وانتهى بخبل عقلي حيث ادعى النبوة وتأسيس ديانة جديدة أطلق عليها ديانة الوضعية والإنسانية، وأرسى لها حسب قوله شعارات ومبادئ كتبت على قبره بعد موته"[٣].

هذا بالإضافة إلى أن كونت كان يرى " أن الفكر النقدي والتقدمي والعلمي قد نجح في تقويض الكاثوليكية ، والحاجة ماسة إلى ديانة وضعية علمية جديدة يلتف الناس حولها"[٤].

فما طبيعة هذه الديانة الإنسانية إذن التي أقامها أوجست كونت ودعا الناس إليها؟

إن كونت "لم يمل أبدا من الإشادة بالنظام الكاثوليكي في ذلك العصر بما حققه من

---

(١) هذه السيدة كانت تسمى كلوتايلد وهى كاتبة روائية طموحة صغيرة السن توفيت ١٨٤٦م وكانت مصدر الوحي عند كونت " ينظر خمسون عالما اجتماعيا أساسيا المنظرون المؤسسون ص(٢٨٤) مرجع سابق

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ص(٣١٧) بتصرف مرجع سابق

(٣) التوجيه الإسلامي لعلم الاجتماع د/ نبيل السمالوطي ص(٢٧)

(٤) تاريخ علم الاجتماع د/ محمود عودة ص(٧٦) دار النهضة العربية بدون تاريخ

فصل بين السلطة الزمنية والروحية؛ لذلك كان المذهب الوضعي الذي طوره كونت مذهبا كاثوليكيا بدون عقيدة مسيحية"[١]. فكونت يرى أن العقيدة الكاثوليكية زائلة؛ لأنها لم تسطع الصمود أمام النقد العلمي ، أما التنظيم الكنسى فلابد أن يبقي ولكن بعقيدة جديدة يستطيع من خلالها التأثير في المجتمع والسيطرة عليه. وهذا ما قام به أوجست كونت حيث عمل على بناء ديانته الجديدة على غرار النظام الكنسي!

أولا: عقيدة دين الإنسانية الكونتي

١ – قطع كونت أي صلة للإنسانية بالله سبحانه حيث يرى أنه لابد من "محو فكرة (الحق)الراجعة إلى أصل لاهوتي من حيث إنها تفترض سلطة أعلى من الإنسان، وحصر الأخلاق في كلها في فكرة (الواجب) ذلك الميل الطبيعي إلى إخضاع النزعات الذاتية لصالح النوع أجمع، بحيث يصير شعارنا (الحياة لأجل الغير) إن فكرة الواجب آتية من الروح الاجتماعي الذي تحققه الفلسفة الواقعية، إذ تبين الفرد عضوا من النوع الإنساني. وتستنبط قوانين سيرته من النظام الكلي للأشياء، لا من مصلحته فحسب والإنسانية بهذا المعنى هي أرفع المعاني في ميدان الأخلاق"[٢]. إذن الإنسانية لا صلة لها بالله، إنما هي شيء نابع من الروح الاجتماعي الذي تحققه فلسفة كونت الواقعية ، ومن ثم فهي شيء أرضي لا صلة له بالأعلى سبحانه

٢ – " الدين خاصية النوع الإنساني. وتعريفه أنه المبدأ الأكبر الموحد لجميع قوى الفرد ولجميع الأفعال فيما بينهم، وذلك بنصب غاية واحدة لجميع الأفعال ..، وهذا المعنى ينطق به التاريخ ، فليس يوجد الفرد إلا بفضل الماضي، وليس يستمد أسباب الحياة المادية والعقلية والخلقية إلا من الإنسانية بحيث نستطيع أن نقول إن

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص(٧٧–٧٨) مرجع سابق

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ص(٣٢٦) بتصرف

الأموات أحياء أكثر من الأحياء أنفسهم. فديانة الإنسانية عبادة الإنسانية باعتبارها (الموجود الأعظم) الذي تشارك فيه الموجودات الماضية والحاضرة والمستقبلة المساهمة في تقدم بني الإنسان وسعادتهم"[١]. إذن الإنسانية هي الخالقة ، وهى التي تمد الإنسان بأسباب البقاء. ومن ثم فإن الموتى أحياء لأن الذي مات هو الناسوت وبقي اللاهوت الذي لا يموت وهو الإنسانية. ولا يخفى الأثر النصراني على فلسفة كونت فهو يقول باتحاد اللاهوت وهو الإنسانية بالناسوت وهو الإنسان. بل إن كونت قد شكل ثالوثا قدوسا في عقيدته الإنسانية يقوم مقام الثالوث النصراني الأقنوم الأول منه هو (الموجود الأعظم) الذي سماه (الإنسانية) والأقنوم الثاني الأرض وسماه (الفتش الأعظم) والأقنوم الثالث السماء أو الهواء وسماه (الوسط الأعظم) "[٢]. وهذا الثالوث هو الثالوث الواقعي الذي ابتدعه كونت

٣ – ولذا فإن كونت يعترف بأن فلسفته الواقعية العلمانية " لا يمكن أن تنتهى إلى وحدة مطلقة كالله في الحالة اللاهوتية، وكالطبيعة في الحالة الميتافيزيقية. فالفلسفة الواقعية جملة القوانين المكتسبة فعلا بالتجربة لا جملة قوانين الوجود"[٣]. إذن ما الذي يمكن أن تنتهى إليه فلسفة كونت؟ يجيب قائلا " إذا لم نستطع البلوغ إلى وحدة موضوعية فبوسعنا أن نبلغ إلى وحدة ذاتية تقوم في تطبيق منهج واحد بعينة في جميع ميادين المعرفة ..، فالمنهج الواقعي يحقق الوحدة في عقل الفرد، ويحققها بين عقول الأفراد ....، ومن هذه الوجهة تجد في معنى الإنسانية المقابل الوحيد لمعنى الله"[٤]. إذن الإنسانية منهج يحقق الوحدة ويصلح أن يحل محل المولى سبحانه مع

---

(١) المرجع السابق (٣٢٧-٣٢٨)

(٢) ينظر: كواشف زيوف ص(٤١٩) مرجع سابق

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة (٣٢٠) مرجع سابق

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة.

تنزههه سبحانه عن المحل والمخصص! وأنت ترى أن كونت بعد هذه الأوصاف العدمية التي وصف بها معبوده . وبعد قطع كل صله لديانته بالله يسقط في حمأة دينه النصراني الذي ارتد عنه، فإذ بهذه التخرصات والظنون التي لا تمت إلى الحقيقة بصلة يحاكي بها دينه الذي ارتد عنه فيعمد إلى أخس الموجودات وهو العرض الذي يقوم بغيره وهو (الإنسانية) ويجعل منه إلها يعبد من دون الله!

ثانيا: العبادة في دين الإنسانية الكونتي

دعا كونت الناس إلى عبادة الموجود الأعظم وهو الإنسانية ووضع لتلك العبادة نظاما اشتمل على تقسيم العبادة إلى:

١ – " عبادة مشتركة تقوم في أعياد تذكارية تكريما للمحسنين إلى الإنسانية فيملؤها السرور وعرفان الجميل. وقد وضع كونت تقويما واقعيا دل فيه على كل يوم وكل شهر بأسماء الرجال الذين امتازوا بالعمل على تقدم الإنسانية"(١). وأقام لهذا الدين الجديد " معبدا حقيقيا تنصب فيه التماثيل ويصاغ فيه تمثال المعبود (الإنسانية) على هيئة أنثى، وتقام بجواره تماثيل نصفيه لأبطال التاريخ"(٢).وقد أقام كونت أيضا المهرجانات والاحتفالات " بأعلام الماضي البارزين مثل أرسطو، ويوليوس قيصر، ودانتي، وكان يعتقد أن طائفة الموات كانت مهمة في تعزيز التواصل البشري"(٣). فهؤلاء العظماء في زعم كونت هم الذين يمثلون الإنسانية يقول إمرسن"(٤). ربطت الإنسانية مصيرها في جميع العصور بأشخاص قلائل كانوا

(١) المرجع السابق ص (٣٢٨).

(٢) الفكر الإسلامي في مواجهة التيارات الفكرية المعاصرة د/ يحيي هاشم فرغل ص (٢٤٩) ط١/١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

(٣) خمسون عالما اجتماعيا أساسيا ص (٢٨٥) مرجع سابق.

(٤) كاتب من كبار الكتاب الأمريكان ولد في ٢٥مايو ١٨٠٣م لأب من رجال الدين وليام إمرسن وتوفي في ٢٧أبريل ١٨٨٢م ينظر: تراث الإنسانية – ممثلو الإنسانية لوالف والدو أمرسن الاستاذ على أداهم (٤١٣/٣) وما بعدها

جديرين بأن يكونوا قادة أو صانعي قوانين وشرائع ، وذلك بحكم الفكرة التي يمثلونها أو اتساع مدى تلقيهم ، فهم يعلموننا صفات الطبيعة الأولى، ويطلعوننا على تكوين الأشياء"[١].

٢ – وعبادة فردية " يتخذ فيها الأشخاص الأعزاء على الفرد نماذج للمثل الأعلى. ولما كانت كرامة الفرد تقوم في كونه جزءا من (الموجود الأعظم) كان واجبه أن يوجه جميع أفكاره وأفعاله إلى صيانة هذا الموجود، وإبلاغه حد الكمال، وهكذا تنطوي الغيرية على الواجب الأعظم وعلى السعادة العظمي جميعا"[٢]. وأنت ترى وثنية كونت في أسوأ صورها وأبأس حالاتها، إذ كيف يصون العابد معبوده؟ وكيف يصل العابد بالمعبود حد الكمال؟! أو كان المعبود ناقصا حتى يصل به العابدون إلى درجة الكمال. إن هذا لشيء عجاب

٣ – وعهد كونت بتدبير أمر العبادة إلى " هيئة إكليريكية أعضاؤها فلاسفة شعراء أطباء معا، مهمتهم استكشاف ما يكفل خير الموجود الأعظم"[٣]. أي أن هذه الهيئة لا تعرف معبودها ، ولا تعرف ما يضره وما ينفعه ، فكيف لها أن تستكشف ما يستقيم به أمر معبودها !

٤ – وأقام كونت معابد لديانته تقدم فيها القرابين وتقام فيها العبادة فقد شدد كونت على" أهمية إنشاء مدارس وضعية لغرس المبادئ الفكرية والأخلاقية في الأذهان إضافة إلى إحياء الفنون والآداب"[٤].

٥ – وحتى يتألق الموجود الأعظم ويصل إلى درجة الكمال قسم كونت المجتمع إلى طبقات الأولى: " الفلاسفة الذين هم بمثابة الدماغ ، الثانية: النساء وهن بمثابة

---

(١) المرجع السابق (٤١٩/٣)

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ص (٣٢٨) مرجع سابق

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة

(٤) خمسون عالما اجتماعيا أساسيا ص (٢٨٥)

أعضاء العاطفة، وواجبهن إثارة عواطف الحنان والغيرية الكفيلة باستكمال الموجود الأعظم، الثالثة: رجال الصناعة والمال وهم بمثابة أعضاء التغذية، الرابعة: العمال وهم بمثابة أعضاء الحركة"(١). وأنت ترى أن هذا تقسم عبثي لا يركن إلى منطق فليس كل طبقة قاصرة على وظيفتها لا تتعداها إلى غيرها فهذا يجافي الواقع إذ يوجد أفراد من كل طبقة يقومون بأي عمل في طبقة أخرى.

٦ – ووضع كونت شعارا لديانته ، هذا الشعار مثلث الأقانيم " المحبة كمبدأ، والنظام كأساس، والتقدم كغاية"(٢). والذي يحمى المحبة العلماء والفلاسفة، والذي يحمى النظام السلطة الإدارية، وكل ذلك يضمن التقدم الذي هو هدف الإنسانية

ثالثا: التبشير بدين الإنسانية الكونتي

إن كونت بعد أن شاد بنيان دينه الجديد، دعا الناس إليه فتبعه بعض الأغرار حيث " كان له بعض الأشياع في فرنسا وإنجلترا والسويد، وأمريكا الجنوبية، تبعوا في كل بلد كاهنا وأقاموا معابد"(٣). وهذا الانتشار الجزئي حينها لدين الإنسانية الكونتي جعل من دين الإنسانية اتجاها دينيا فقد جاء في بيان للإنسانين نشر في عام ١٩٣٣م ما ملخصه "الكون موجود بذاته وليس مخلوقا، والإنسان جزء من الطبيعة، ومضي زمن الدين والألوهية لأن الدين نتيجة التفاعل بين الإنسان وبين مجتمعه الخ"(٤). وأنت ترى أن هذه مادية محضة، وعلمانية خالصة وإن كان أمر الدين الكونتي لا يعدو كونه مسخا " مسخ به كونت الديانة المسيحية ونصب نفسه كاهنها الأكبر"(٥). وبنظرة موضوعية

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص (٣٢٨) مرجع سابق

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة

(٤) الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه د/محمود عبد الحكيم عتمان ص(١١٥-١١٦)، ط: ٥/ ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٥) تاريخ الفلسفة الحديثة ص(٣٢٨) مرجع سابق

لدين الإنسانية الكونتى يتبين بأن هذا الدين خرافي لأنه مبني على قانون الحالات الثلاث الذي ثبت بطلانه " ولأن واقعية المجتمع البشري ترفضه ولا تقبله ، بشهادة الواقع في دول العالم الغربي الذي أعجب بفلسفته، وبعد أن اندفع ليتقبل دينه بعض الناس، رأوا بالتجربة الواقعية أنه دين تافه، فتلاشى هذا الاندفاع، وانطوت دعوته في الأحافير"[(١)]." والواقع شاهد أمين فقد ذهب دين الإنسانية مع صاحبه، وذهب دعاته والمبشرون به، وتلاشت معابده ، واضمحلت شعائره، ولم يعد له وجود إلا في بطون الكتب شاهدا على تردي العقل البشـــري في هوة سحيقة عندما يتخبطه الشـــيطان ويترك الوحى المعصوم ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧] إن الإسلام هو دين الإنسانية في أسمى معانيها، وأزكي مراميها، وأقوى مبانيها فالإسلام يقرر أن الناس أمة واحدة بأصل التكوين ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ [البقرة: ٢١٣] والناس جميعا مدعوون للخضوع لخالق الناس وعبادته وحده ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ﴾ [البقرة: ٢١] والرسالة الإسلامية رسالة عالمية للإنس والجن ، ومن ثم فإن الإسلام يخاطب الإنسانية بأسرها ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨ ﴾ [سبأ: ٢٨] "وذلك لأنها تلائم كل الناس، إذ هي مشتقة من الفطرة الإنسانية، وجاءت لتوجيهها نحو الخير من غير إعنات لها، ولقد عاملت الأجناس كلها وعممت فيها أحكامها فليست هناك أحكام للبيض، وأخرى للسود فالطبيعة الإنسانية واحدة، والمعاملة واحدة، والتكليف واحد"[(٢)].

---

(١) كواشف زيوف ص(٤٢٧) بتصرف يسير مرجع سابق

(٢) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام الإمام محمد أبو زهرة (١/٥٧-٥٨)بتصرف مرجع سابق وللمزيد ينظر الإسلام دين الإنسانية د/ محمد البهي تقديم د/ زقزوق هدية هيئة كبار العلماء شوال ١٤٣٨هـ وينظر =

وهذه مساواة لم تعرف البشرية لها مثيلا أهداها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم للبشرية مذكرا لها " بأن الإسلام واسع في مداركه سعة الإنسانية نفسها، هذا الدين لم ينشأ من تعاليم النبي الكريم محمد، بل لقد كان دين الأنبياء الذين جاءوا من قبل، لقد كان الإسلام دين آدم ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى فهو في الحقيقة دين كل رسل الذين ظهروا في العالم، لا بل إن الإسلام دين كل طفل يولد، كما ورد في الحديث عنه عليه السلام، ثم إن محمدا عليه السلام – إذا تحرينا الدقة – لم يكن مبتدع هذا الدين بل كان آخر مظهر لهذا النظام الإلهي"[1]. هذه هي الإنسانية الحقة، وليست إنسانية التخرصات والظنون، والأوهام.

=

أيضا الإسلام دين الإنسانية آنا ماري شيل تقديم د/زقزوق هدية هيئة كبار العلماء ذوالحجة١٤٣٨هـ وينظر أيضا الإسلام كما يراه الأوربيون د/ محمد غلاب هدية مجلة الأزهر ١٤٣٠هـ

(١) الإسلام دين الإنسانية مولانا محمد على ص (١٣-١٤) ترجمة السيدة حبيبة شعبان يكن المكتبة الأهلية بيروت ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.

الفصل الثاني
الأسس العلمانية لنظرية إيميل دور كايم الاجتماعية

المبحث الأول: الأسس العلمانية للظاهرة الاجتماعية عند إيميل دوركايم

المبحث الثاني: الأسس العلمانية للضمير الجمعي عند إيميل دوركايم

المبحث الثالث: الأسس العلمانية للدين عند إيميل دوركايم

المبحث الأول

الأسس العلمانية للظاهرة الاجتماعية عند إيميل دوركايم

لقد بدا واضحا أن نظرية كونت الاجتماعية واهية الأركان متداعية البنيان، فليس لها أساس تمت إليه، ولا سبب تتعلق به وتعتمد عليه " فقد جاءت قوانينه –أي كونت– أقرب إلى التصورات والفروض الفلسفية منها إلى طبيعة حقائق الاجتماع وشؤون العمران"(١). وبالرغم من أن دوركايم قد سار على خطى كونت إلا أن دوركايم كان يرى أن من سبقه من العلماء ومنهم كونت " لم ينجحوا في فصل علم الاجتماع عن الفلسفة والتصورات الميتافيزيقية، فهو وإن كان يؤمن بالمنهج الوضعي، إلا أنها ليست تلك الوضعية ميتافيزيقية التي تبناها كونت وغيره، حين نظر إلى الظواهر الاجتماعية بوصفها تسير عبر خط تطوري تقدمي واحد"(٢). في إشارة إلى قانون الحالات الثلاث الكونتي الذي ثبت بطلانه. وعلى أية حال فإن دوركايم قام بجهد كبير في تحديد موضوع مستقل لعلم الاجتماع من خلال فصل الظواهر الاجتماعية عن غيرها من الظواهر الطبيعية يقول دوركايم:

"ما من حادثة إنسانية إلا ويمكن أن نطلق عليها اسم (الظاهرة الاجتماعية) فإن كل فرد منا يشرب وينام ويأكل ويفكر ....، ومن ثم فلو كانت هذه الأشياء ظواهر اجتماعية لما وجد موضوع خاص بعلم الاجتماع، ولاختلط مجال بحثه بمجال البحث في كل من علم الحياة وعلم النفس؛ ولكن جميع المجتمعات تحتوي في الواقع على ظاهرة محددة من الظواهر التي تتميز عن الظواهر التي تدرسها العلوم بصفات جوهرية"(٣). وبين دوركايم المنهج الذي يجب أن تُدرس به الظاهرة "فقد ركز على ضرورة تفسير هذه

---

(١) علم الاجتماع ومدارسه د/ مصطفي الخشاب (٢/٥) مكتبة الأنجلو المصرية

(٢) رواد علم الاجتماع قراءة جديدة للفكر الاجتماعي الغربي د/محمد على محمد ص (٩٧-٩٨) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م

(٣) قواعد المنهج في علم الاجتماع ص(٣١) مرجع سابق

الظاهرات بظاهرات من نفس طبيعتها، أي تفسير ما هو اجتماعي بما هو اجتماعي"[١].

ولذا يقول دوركايم:" إن الظواهر أشياء ويجب أن تُدرس على أنها أشياء ..، ويكفى أن نعلم أن هذه الظواهر هي المادة الوحيدة التي يمكن اتخاذها موضوعا لعلم الاجتماع"[٢]. ودوركايم يقصد الظواهر الاجتماعية ؛ لأن علم الاجتماع " لن يصبح علما إلا إذا تخلى عن دعواه الأولى في الدراسة الشاملة للواقع الاجتماعي برمته، وإلا إذا ميز بين كثير من الأجزاء، والعناصر، والجوانب التي يمكن أن تتخذ موضوعات لمشكلات محددة"[٣].

فما الظاهرة الاجتماعية عند إيميل دور كايم؟

" إن الطبيعة في الفلسفة المادية الملحدة، وجدت هكذا بنفسها، وكذلك سننها أو قوانينها فهي مقدرة بنفسها من غير مقدر لها، والعقل وحده طريق معرفة الحقائق، وليس ثمة طريق آخر. وليست المثل الأخلاقية والقيم والمفاهيم الحقيقية إلا وقائع أو حوادث كالحوادث الطبيعية، نشأت وتطورت فهي ليست ثابتة، والإنسان نفسه إنما هو حيوان اجتماعي مفكر فحسب، وليست النفس الإنسانية إلا مجموعة من الغرائز"[٤]. من هذه الخلفية الفكرية انطلق دوركايم يؤسس لنظريته الاجتماعية فيعرف الظاهرة الاجتماعية بأنها " كل ضرب من السلوك ثابتا كان أم غير ثابت ، يمكن أن يباشر نوعا من القهر الخارجي على الأفراد، أو هي كل سلوك يعم في المجتمع بأسره، وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التي يتشكل بها في الحالات الفردية"[٥].

---

(١) اتجاهات نظرية في علم الاجتماع ص (١٤٤) مرجع سابق

(٢) المرجع السابق ص(٦٥)

(٣) مقدمة في علم الاجتماع أليكس إنكلز ص (٤٦) مرجع سابق

(٤) نحو صياغة إسلامية لعلم الاجتماع محمد المبارك ص (٣٣-٣٧) نقلا عن مناهج البحث في العلوم الإسلامية د/ مصطفى حلمي ص(٢٠١) مكتبة الزهراء ط١/١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٥) قواعد المنهج في علم الاجتماع ص (٤٧) مرجع سابق

ويبين دوركايم صفات الظاهرة الاجتماعية فيقول: " تنحصر هذه الظواهر في ضروب من السلوك والتفكير والشعور ، وهى توجد خارج الفرد، وقد زودت بقوة قهر تمكنها من فرض نفسها عليها"[١]. وأنت ترى أن الظواهر الاجتماعية عند دوركايم لها عدة خواص منها أنها موضوعية أي مستقلة الوجود " فهي خارجية تتجاوز في وجودها أي كائن فردي، وهي مستمرة عبر الزمن بينما يولد كل يوم أفراد جدد ويموت آخرون، وهى لا تبدأ ببدايتهم ولا تنتهي بنهايتهم، فوجودها إذا مستقل عن وجود الكائنات الفردية المشاركة فيها"[٢].

ومن خواص الظاهرة أيضا أنها تلقائية " فالظواهر الاجتماعية لا تعتمد في نشأتها وتطورها على إرادة الفرد أو أعضاء المجتمع فهي نتاج التجمع في ذاته؛ فالنظم الاقتصادية، والسياسية، والدينية، والعائلية، والقانونية إلخ نتاج لأعضاء المجتمع أثناء تجمعهم معا"[٣]. ومن خواص الظاهرة أيضا أنها قاهرة لأفراد المجتمع، وأنها عامة " فالظاهرة إنما تصير عامة لأنها تفرض نفسها على الأفراد في سائر أنحاء المجتمع، فليست الظواهر اجتماعية لأنها عامة؛ بل هي عامة لأنها اجتماعية"[٤]. ومهما يكن من شيء فإن دور كايم قد وضع " أسس علم الاجتماع وفقا لتصوراته المنهجية، وتفسيره لكل من الفرد والمجتمع مرتكزا على ثلاثة افتراضات أساسية:

١ – أن هناك وحدة في الطبيعة.

٢ – وأن الظواهر الطبيعية جزء من العالم الموضوعي أو هي واقعية.

٣ – تخضع هذه الظواهر لقوانين ومبادئ خاصة هي قوانين طبيعية، ومن ثم فهي

---

(١) المرجع السابق ص(٣٤)

(٢) تاريخ علم الاجتماع د/ محمود عودة ص(٢١٥) مرجع سابق

(٣) المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع ص (١٠٩) مرجع سابق

(٤) تراث الإنسانية – قواعد المنهج في علم الاجتماع لإيميل دوركايم د/محمود قاسم (٥٩١/١)

تخضع للبحث العلمي"[١].

ويتضح مما سبق بأدنى نظر أن دور كايم يضفي على الظاهرة الاجتماعية صفات الألوهية فالظاهرة لها وجودها المستقل، ولها قهرها العام، وهى أزلية أبدية وجدت قبل الأفراد وباقية بعد فنائهم " والواقع أن هذا المبدأ الرئيس يشكل لب منهج دوركايم الاجتماعي، كما إنه مفتاح أساسي من مفاتيح فهم موقفه الأيديولوجي والسياسي"[٢]. ومما يؤكد هذا المنحى أن دوركايم عندما لجأ إلى الحل الخلقي لمشكلات المجتمع من خلال التربية العلمانية رأى أنه لابد حينئذ من قوة إلزام " مثل (الله) الذي اعتمدت عليه أخلاق المجتمع القديم. إن هذا الموجود الذي يتمتع بكثير من خصائص (إله الكاثوليكية) الذي لم يصمد أمام الفلسفات النقدية والحركات الثورية هو(المجتمع) "[٣].

وقضية تأليه المجتمع ليست مفهومة من كلام دوركايم بل هي منطوق كلامه إذ يقول "إن الشخصية الإنسانية هي الشيء الخليق بالتقديس، وأن لها حق التبجيل الذي كان المؤمنون في كل الأديان يكنونه لإلههم. ولقد عبرنا نحن أنفسنا عن هذه البديهة حين جعلنا من فكرة الإنسانية غاية وأصلا للوطن"[٤]. ويقول أيضا " إن الألوهية هي التعبير الرمزي عن روح الجماعة"[٥]. وبهذا يتضح " أن ألوهية المجتمع بالنسبة لدور كايم هي مسألة (بديهية) بمعنى أنها غير قابلة للبرهنة، وإنما يقبلها كمسلمة يفترض صحتها مسبقا"[٦].

وأنت ترى أن دوركايم عمد إلى الظاهرات الاجتماعية التي ليس لها وجود في

---

(١) رواد علم الاجتماع ص(٩٨) مرجع سابق

(٢) تاريخ علم الاجتماع د/ محمود عودة ص(٢١٨) مرجع سابق

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة

(٤) التربية الأخلاقية ص (١٠٤) مرجع سابق

(٥) المرجع السابق ص(١٠١)

(٦) منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية ص(٨٤) مرجع سابق

ذاتها وإنما تظهر عند السلوك الجماعي للأفراد، وجعل منها إلها يعبد من دون الله " إن مثل هذا الاتجاه – اتجاه إلحادي – يتصور العالم بدون إله خالق، ثم يحاول أن يستعير بعض صفات الله – كما وردت في الأديان – لكي يخلعها على جانب من هذا العالم المخلوق! "[١]. والذي يتحتم معرفته والإيمان به أن الله تعالى ذات موصوفة بصفات مفارقة لهذا العالم؛ فلو كان صفة سبحانه لاحتاج إلى ذات يقوم بها والاحتياج نقص، والنقص عليه محال. ولو افتقر إلى محل لكان هذا المحل أولي بالألوهية.

"ثم إن صفة الجبر والإلزام التي تتميز بها الظواهر الاجتماعية تجعل من الفرد رقيقا للمجتمع ،وتقضي على حريته وتحط من قيمته الأخلاقية والعقلية. فالفرد إذ يؤدي عملا من الأعمال لا يؤديه لأنه يدرك معقوليته أو خيريته؛ ولكن لأنه مفروض عليه بنوع من القهر والإلزام. وهذا القول ينطوي على تأليه المجتمع"[٢].

إن تأليه الظاهرات الاجتماعية كما ذهب إلى ذلك دوركايم جعل المؤرخين لعلم الاجتماع يقرون "بأن عمل دوركايم يُعتبر في الحقيقة أكبر مجهود مذهبي عمل على تحرير علم الاجتماع من اللاهوت والفلسفة والسياسة، وإنه أراد في نهاية الأمر أن يقلب الأدوار وتجد في علم الاجتماع التفسير الوحيد لعلم اللاهوت والفلسفة"[٣]. وأنت ترى أن دور كايم قد استبدل المجتمع بالله، وصار المجتمع عند دوركايم هو الإله الذي لا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه!. ومهما يكن من شيء فإن تأليه دوركايم للمجتمع هو الأساس الذي بنى عليه نظريته الاجتماعية ،وهو المدخل الرئيس لفهم نظريته على وجهها الصحيح. فإذا كان المجتمع هو الإله عند دوركايم! فلابد أن ندرك أنه الأصل لكل جزء من أجزاء نظريته الاجتماعية.

---

(١) هوامش على العقيدة النظامية لإمام الحرمين الجويني د/ محمد عبد الفضيل القوصي ص(١٥٦)، مكتبة الإيمان، ط: ٢/٢٠٠٦م.

(٢) علم الاجتماع ومدارسه – تاريخ التفكير الاجتماعي وتطوره (٢٠٣/١)مرجع سابق

(٣) منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية ص(٤٨) مرجع سابق

المبحث الثاني

الأسس العلمانية للعقل الجمعي عند إيميل دوركايم

إن دوركايم اقترب كثيرا من ماركس في أكثر من قضية منها " تلك التي تذهب إلى أن الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي الاجتماعي"(١). بمعنى أن دور كايم جعل المجتمع أصلا لكل شيء " ذلك لأن محتويات العقل وما يتضمنه من الفكر من صور ومقولات صدرت جميعها عن أصل اجتماعي، ومن ثم كان هذا الأصل بمثابة الأساس الموضوعي للفكر الإنساني"(٢).

"فالمعاني والمبادئ العقلية نتاج الفكر المجموعي فإنها كلية ثابتة إلى حد ما، ضرورية لتنظيم التجربة"(٣).

إن دور كايم رام برأيه هذا "أن يفض الخلاف الناشب بين الحسيين والعقليين بقوله: إن المعاني والمبادئ مصنوعة من المجتمع غريزية في الأفراد"(٤).

فما العقل أو الضمير الجمعي؟.

يرى دوركايم " أن للمجتمع عقلا كالفرد، ولكن العقل الجمعي ليس هو العقل الفردي؛ إذ هو ناتج عن تفاعل العقول الفردية، فالناس عندما يجتمعون في مجتمع إنما تتفاعل عقولهم وأفكارهم، ويحدث تأثير متبادل بين تمثلاتهم الفردية، وبذلك يولد العقل الجمعي كنتيجة لهذا التفاعل على غرار ما نري في العالم المادي عندما تتفاعل عدة مواد مختلفة، وتنتج مادة جديدة قد تختلف كل الاختلاف عن العناصر الداخلة في تركيبها في جميع خواصها"(٥).

---

(١) الأيديولوجيا وعلم الاجتماع ص(١٤٤)مرجع السابق

(٢) علم اجتماع المعرفة ص(٢٥٥) مرجع سابق

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة ص(٤٣٣) مرجع سابق

(٤) تاريخ الفلسفة الحديثة ص (٤٣٤)مرجع سابق

(٥) تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية ص(١٨٣-١٨٤) مرجع سابق

وأنت ترى التأثير الداروينى الواضح على نظرية دوركايم الاجتماعية، فكل شيء ينشأ بالتفاعل الذاتي إن في عالم المباني، وإن في عالم المعاني ولا دخل لأي قوة عليا في هذا التفاعل ولافي نتائجه. ويزيد دوركايم الأمر وضوحا فيقول: "الضمير الجمعي يعيش بين الأفراد، ويتخلل حياتهم، إلا أنه يكتسب مزيدا من القوة والتأثير والاستقلال، حينما يتحقق نوع من التماثل الواضح بين أفراد المجتمع؛ ذلك أن الضمير الجمعي يعد نتاجا للتماثل الإنساني"(١).

ومهما يكن من شيء فإن الضمير الجمعي مجموعة من المعتقدات والمشاعر العامة لدي أعضاء المجتمع الواحد والتي تكوّن نسقا خاصا يضمن استمرار القيم الاجتماعية والخلقية. وهو مصدر الأمر والنهي

ومصدر الأخلاق والمعرفة"(٢). وهذا لون من ألون التطرف التجريبي "الذي يمكن أن نطلق عليه التجريبية الاجتماعية مثال هذا (دوركايم) الذي أنكر العقل كمصدر للمعرفة، كما أنكر ما وراء الطبيعة، وأنكر المصدر الغيبي للمعرفة. فالمعرفة ترتبط عنده بالعقل الجمعي، وتصورات المجتمع، ومقتضيات الحياة الاجتماعية، وهكذا اعتبرت المبادئ العقلية ظواهر اجتماعية أو نتاج المجتمع في العقل الجمعي ..، وهذه الفكرة وثنية في جذورها ومضامينها وأهدافها"(٣).

ماهية العقل الجمعي

يرى دوركايم "أن كل فرد منا يحمل في نفسه نظما وقواعد اجتماعية تكونت فيه بالتدريج، وهى ليست شيئا آخر إلا الحقيقة الاجتماعية"(٤). التي أسهمت في إنشائها

---

(١) نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ص(١٧٣) مرجع سابق

(٢) ينظر: بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي ص(٦٠-٦١) مرجع سابق

(٣) التوجيه الإسلامي لعلم الاجتماع د/ نبيل السمالوطي ص(٩-١٠)

(٤) الحقيقة الاجتماعية التي هي موضوع علم الاجتماع تتمثل في الآتي:

١ - المورفولوجيا الاجتماعية وهى عبارة عن التركيب الجغرافي وكثافة السكان ، وعوامل تصنيفهم =

وتطورها الأجيال السابقة عليه بالإضافة إلى جيله، وتلك الحقيقة الاجتماعية هي موضوع علم الاجتماع"[(١)].

والحقيقة الاجتماعية عند دوركايم لن يُتوصل إليها إلا بدراسة الوقائع الاجتماعية"[(٢)]. التي لها وجود خاص بها، وهي عبارة عن قوى حقيقية لا تقل في وجودها عن القوي الكونية. "وهى عبارة عن بناءات تعمل – من خلال أشكالها الظاهرة – على ضبط وتنظيم الأفعال الإنسانية، ولكونها خارجة على الأفراد، وتكتسب الوقائع قوة قهرية تمكنها من فرض سيطرتها ونفوذها على الأفراد حتى وإن كان ذلك ضد إرادتهم"[(٣)]. وأنت ترى جبرية دوركايم في أبأس حالاتها، وأحط صورها حين يدعى أن

=

واختلافهم في اللون واللغة.

٢ – الفسيولوجيا الاجتماعية وهي التي تتضمن العمليات الديناميكية كالعقيدة والأخلاق والقانون والحياة الاقتصادية.

٣ – علم الاجتماع العام وهو عبارة عن المحاولات التي تبذل في سبيل اكتشاف القوانين الاجتماعية».

ينظر: تاريخ الفكر الاجتماعي د/ محمد أحمد بيومي ص (١٤١) نقلا عن بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي ص (٥٥-٥٦) وينظر أيضا بناء النظرية في علم الاجتماع نموذج نظرية تقسيم العمل د/كمال عبدالحميد الزيات ص(١٤٨) مكتبة نهضة الشرق ١٩٨٠م

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية ص (١٨٤) مرجع سابق

(٢) ويعرف دوركايم الوقائع الاجتماعية بأنها" كل وسيلة أو كل أسلوب للتصرف تمارس فرضا أو اجبارا خارجيا على الفرد أو كل وسيلة للتصرف تتصف بالعمومية في مجتمع ما ، ولكنها توجد في نفس الوقت مستقلة بنفسها" ينظر: النظرية في علم الاجتماع دراسة نقدية د/ سمير نعيم أحمد ص(٩٧)ط٣/١٩٨٢م وتنحصر الوقائع الاجتماعية في ثلاثة أشياء:

١ – التصورات والمفاهيم والسلوكيات التي يمارسها الفرد كتعبير عن المجتمع.

٢ – النظم التي تتكون من خلال هذه التصورات.

٣ – الأشكال الاجتماعية".

ينظر: بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي ص(٥٥) مرجع سابق

(٣) علم اجتماع المعرفة ص(٢٥١) مرجع سابق.

الإنسان ليس بمقدوره اختيار تصميم بيته أو ألوان ملابسه فإذ به يقول: "نحن لا نستطيع أن نتخير تصميم منازلنا، بل لا نستطيع أن نتخير قطعة القماش الذي نصنع منها ملابسنا ففي كلا الموقفين قدر من الإلزام لا يقل عما في الآخر"(١).

وكأني بدوركايم يردد مقالة الجبرية "الذين يقولون: إنا مجبرون على أفعالنا، ويسندون الأفعال إلى الله – تعالى، فمنهم (متوسطة)، يسندون الفعل إلى الله، ويثبتون للعبد كسبا، (وخالصة)، لا تثبت للعبد شيئا كالجهمية أصحاب الجهم بن صفوان، قالوا: لا قدرة للعبد أصلا، والله – سبحانه وتعالى – لا يعلم الشيء قبل وقوعه، وعلمه – تعالى – حادث لا في محل، ولا يوصف بما يوصف به غيره، كالعلم والقدرة والإرادة"(٢).

ودوركايم لا يسند للعبد فعلا كالجبرية ولكنه يسند الأفعال كلها إلى معبوده العقل الجمعي! "الذي يتلقى منه العقل الفردي أفكاره ومبادئه ويخضع لها راضيا أوكارها"(٣).

ويستمر دوركايم في بيان ماهية العقل الجمعي فيرى أنه " لا توجد – أي الوقائع الاجتماعية – إلا في المجتمع فلا يولد الأفراد مزودين بها بشكل غريزي؛ بل إنها ناتجة عن الحياة الاجتماعية. وهذه الوقائع الجمعية ليست إلا عناصر العقل الجمعي"(٤).

وبهذا يتضح أن كل نشاط ينشأ عن اجتماع الناس وتفاعلهم فيما بينهم هو عنصر من عناصر العقل الجمعي. وبالتالي فإن دوركايم حدد المصدر الذي تستند إليه الحياة العقلية بقوله: "إن ظواهر المجتمع تستقل عن الأفراد، وأن التصورات الجمعية خارجة في نفس الوقت عن التصورات والعقول الفردية، وأن الحياة الجمعية هي الأساس

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة

(٢) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية شمس الدين أبو العون محمد بن أحمد السفاريني(٩٠/١) مؤسسة الخافقين دمشق الطبعة:٢ – ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م

(٣) التوجيه الإسلامي لعلم الاجتماع ص(١٠) مرجع سابق

(٤) تاريخ الفكر الاجتماعي (١٨٥) مرجع سابق

الذي تستند إليه الحياة السيكولوجية"[١].

والعقلية على حد سواء، ومن ثم تصبح التصورات الجمعية هي المصدر الوحيد للتصورات الفردية"[٢]. ذلك لأن "الوقائع الاجتماعية شيء داخلي في الأفراد تحكمهم من خلال كونها جزءا متكاملا من ذواتهم. وبهذه الطريقة يدخل المجتمع في الفرد كقوة أخلاقية معنوية. ولذلك فإن علم الاجتماع لا يكون دراسة لوقائع خارجية؛ بل يصبح دراسة للطرق التي تتشبع بها الوقائع الاجتماعية بعناصر أخلاقية معنوية"[٣].

وأنت ترى أن الضمير الجمعي يعبر "عن معنى مزدوج فهو من ناحية يمثل ضمير الجماعة أو الواقع السيكولوجي الذي يستوعب الأفراد؛ لكنه من ناحية أخرى لا يمثل مجموع الضمائر الفردية التي تعبر عن الأفراد بوصفهم أفرادا"[٤].

ومهما يكن من شيء فإن لب ما ذهب إليه دوركايم هو "أن الحياة الاجتماعية هي التي تشكل الفرد وتطبعه بطابعها الخاص، وأن الفرد في تفكيره وتصرفاته يخضع دائما لما يسود في المجتمع من تيارات جمعية. ومعنى ذلك أن التأثير يقع دائما من جانب واحد وأن الفرد إنما يتلقى دائما آراء المجتمع ويعكسها في سلبية تامة"[٥].

فاعلية العقل الجمعي

إن دوركايم جعل من فكرة العقل الجمعي فكرة لها تجسداتها في الواقع فقد زعم "أن العقل المشترك للمجتمع هو الموجِّه لكل فرد، وهو المكون لأفكار الأفراد، ومذاهبهم، وعاداتهم ، ومفاهيمهم، وذلك عن طريق إلزام المجتمع للفرد بما يحيطه به من

---

(١) علم النفس (أو السيكولوجيا) هو دراسة أكاديمية وتطبيقية للسلوك، والإدراك والعلوم الآلية المستنبطة لهما. يقوم علم النفس عادةً على دراسة الإنسان ويكيبديا الموسوعة الحرة، الأحد ٢٠٢٤/٦/٣٠م.

(٢) علم اجتماع المعرفة ص (٢٥٦) مرجع سابق.

(٣) المرجع السابق ص(٢٥١).

(٤) الفكر الاجتماعي نظرة تاريخية عالمية ص (١٣٠)مرجع سابق.

(٥) المجتمع والمشكلات الاجتماعية د/السيد محمد بدوي ص(٢٢-٢٣) مكتبة الأنجلو المصرية.

قوة اجتماعية ضاغطة"[١].

وأنت ترى أن الضمير الجمعي له سلطانه المبين على الأفراد بل على المجتمع بأسره "فهو يؤثر في عقول جميع الأفراد من خارج كيانهم، وهم لا يملكون إلا أن يطيعوه، ولو على غير إرادة منهم، وهو دائم التغير يُحلُّ اليوم ما كان قد حرمه بالأمس دون ضابط، ولا منطق معقول"[٢].

وأنت ترى أن الضمير الجمعي أصبح الآمر الناهي ،الموجه المحرك لكل شيء في المجتمع .فإذا قرر الضمير الجمعي إلغاء هوية الفرد لصالح المجتمع فعل ولم يبال " فقد تصور دور كايم المجتمع بوصفه يتجاوز مجموع أفراده وبأنه واقع متميز بذاته ومستقل عن وجود الأفراد"[٣].

وإذا قرر العقل الجمعي إلغاء الفطرة التي هي قابلية الإنسان لكل ما هو خير ومنها الدين، فعل ولم يبال يقول دوركايم "إن بعض العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان، وأن هذا الأخير مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين، ومحبة الأبناء وغير ذلك من العواطف، وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو، ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان"[٤]. وإذا أردنا معرفة المصدر الذي تصدر عنه هذه العواطف أجاب دوركايم "بأن هذه العواطف الإنسانية نتيجة للحياة الاجتماعية وليست أساسا لها"[٥].

ولذلك فإن دوركايم يقرر "أن الاجتماع الأسري لا يقوم على الغريزة ،ودوافع الطبيعة والقرابة الدموية؛ ولكن هذا الاجتماع في طبيعته يقوم على قواعد وأساليب

---

(١) كواشف زيوف ص(٣٣٦) مرجع سابق

(٢) المرجع السابق ص (٣٣٧)

(٣) تاريخ علم الاجتماع د/ محمود عودة ص(٢١٠) دار النهضة العربية بيروت

(٤) قواعد المنهج ص(١٧٣) مرجع سابق

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة

يرتضيها العقل الجمعي، وتدعو إليها الحياة الاجتماعية ذاتها"[١].

وأنت ترى أن دوركايم قد أزال روابط القرابة والدم والنسب والدين، وأحلّ محلها روابط واهية سمها الروابط الاجتماعية أو الضغط الاجتماعي الذين هم من صنع الضمير الجمعي. وبالتالي نشأت العلاقات المحرمة، وزنى المحارم لأنه لم يعد يوجد مقدس يردع النفس عن طغيانها ويكفكف من غلوائها وشرودها "فشاع –نتيجة لذلك–زواج (المجموعة)،وابتدأ حل زواج الأخ بأخته. وزواج التجربة وهو المعاشرة الجنسية بين الفتى والفتاة قبل الزواج – وقد لا يصل الأمر بعد ذلك إلى الزواج – تقليد مسلّم به الآن في البلاد العلمانية ، سواء في الشرق أو الغرب، وقلما يعترض عليه أبو الفتاة أوأمها. والزنا لم يعد سببا لطلاق الزوج من زوجته! "[٢].

وهذا من دوركايم مؤامرة على الفطرة ، وعلى الأخلاق ، وعلى الأسرة ، وعلى كل شيء جميل في حياتنا. حيث أراد دوركايم استكمال فصول المؤامرة اليهودية على الدين والأخلاق وصولا إلى إفساد البشرية بأسرها.

ومن مخرجات الضمير الجمعي أنه سبب رئيس في وجود التضامن الآلي "الذي يوجد في المجتمع الذي يتصف بإحساس قوى وعام بالضمير الجمعي فأي فعل ضد شخص ما يعتبر فعلا مضادا لكل الناس في المجتمع ،وفي مثل هذا المجتمع البدائي توقع الجزاءات بطريقة آلية دون أي تفكير"[٣]. وبالتالي " فالتضامن الاجتماعي يمثل عنصرا أساسيا في تكامل المجتمع وتأكيد وحدته، ويرتبط ارتباطا مباشرا بالنسق التشريعي لهذا المجتمع"[٤].

---

(١) علم الاجتماع ومدارسه الكتاب الأول (٢٠٠/١) مرجع سابق

(٢) العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق د/محمد البهي ص(٦٤) بتصرف هدية مجلة الأزهر ربيع الآخر ١٤١٥هـ.

(٣) النظرية في علم الاجتماع دراسة نقدية د/ سمير نعيم أحمد ص(٩٨)ط٣/١٩٨٢م

(٤) بناء النظرية في علم الاجتماع نموذج نظرية تقسيم العمل د/ كمال عبدالحميد الزيات ص(١٢١)مكتبة نهضة الشرق بحرم جامعة القاهرة ١٩٨٠م

والضمير الجمعي سبب رئيس أيضا في وجود التضامن العضوي "الذي ينشأ بين الناس نتيجة الاعتماد المتبادل بينهم، فالشخص لا يصبح متخصصا في شيء إلا إذا كان آخرون متخصصون في انتاج السلع وتقديم الخدمات التي يحتاجها ليتفرغ لتخصصه"(١).

يقول دوركايم:" يرتبط أفراد المجتمع الحديث بعضهم ببعض في شبكة من العلاقات الاجتماعية ،وهذه العلاقات إما سلبية وعكسية، وإما إيجابية وتعاونية، وتعتبر هذه العلاقات أحد العوامل التي تؤدي إلى ربط الشيء بالفرد باعتبار أن الأشياء تمثل جزءا هاما في المجتمع"(٢).

والتضامن بنوعيه ليس من صنع الضمير الجمعي كما يدعى دور كايم، وإنما من تجليات الفطرة. فالمجتمع البدائي الذي لم يتأثر بالأفكار المناهضة لفطرته، ينبعث للدفاع عن قيمه ومبادئه إن مُست بسوء. أما المجتمع الحديث فالتضامن العضو ي أيضا دافعه حاجة الأفراد إلى بعضهم البعض يقول أبو العلاء المعري :الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم"(٣).

نقض فكرة الضمير الجمعى عند دوركايم

وضحت فكرة الضمير الجمعي عند دوركايم ، وهى فكرة خرافية لما يلى:

١ – « إن معالجة دوركايم للظواهر الاجتماعية والضمير الجمعي قد عملت على خلط كثير من الحقائق السوسيولجية الهامة ببعض الأفكار المضللة، بل والخاطئة. فهو يعتقد أننا نخطئ بالضرورة حينما نفسر الظواهر الاجتماعية في ضوء سلوك الأفراد ودوافعهم .... وبالتالي فإن المبادئ التي تحكم هذه العملية ليست مبادئ علم النفس الفردي»"(٤). إذن لابد من التفسير الاجتماعي فقط للظاهرة،

(١) النظرية في علم الاجتماع دراسة نقدية ص(٩٩) مرجع سابق

(٢) بناء النظرية في علم الاجتماع نموذج نظرية تقسيم العمل ص(١٢٣) مرجع سابق

(٣) البلاغة الواضحة على الجارم ص(٢٥١)

(٤) نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ص(١٨٥) مرجع سابق

واستبعاد التفسيرات الأخرى. مع أنه من الملاحظ أن الظاهرات الاجتماعية إنما تنشأ عن عوامل نفسية للأفراد. وإلا فليقل لنا دوركايم ما التفسير الاجتماعي لظاهرة الحرب، والكساد، والغش في المعاملات الخ؟.

٢ – إن فكرة الضمير الجمعي فكرة وصلت (إلى درجة من الواقعية السوسيولوجية كادت تطمس الأهمية الاجتماعية للإرادة الفردية. إن المجتمع حقيقة واقعية لاشك في ذلك، كما أن للفرد وجوده الواقعي؛ وهما أيضا في تفاعل مستمر فمن المضلل إذن أن نمنح لأحدهما أولوية أو أسبقية على الآخر"[١].

٣ – إن الضمير الجمعي خرافة ابتدعها دوركايم لاوجود لها ، فلا يوجد إلا عقول الأفراد أما الجمهور فلا عقل له يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦] والمعنى كما يقول الشيخ الطاهر بن عاشور "أن تقوموا لحق الله مستعيناً أحدكم بصاحب له أو منفرداً بنفسه فإن من أهل النظر من ينشط إليه بالمدارسة ما لا ينشطه بالخَلوة. ومنهم من حاله بعكس هذا، فلهذا اقتصر على (مثنى وفرادى) لأن ما زاد على ذلك لا اضطرار إليه ..، فإن الجماهير إذا اجتمعت لم يخل مجتمعهم من ذي هوى وذي شبهة وذي مكر وذي انتفاع، وهؤلاء بما يلازم نواياهم من الخبث تصحبهم جُرأة لا تترك فيهم وازعاً عن الباطل ولا صدًّا عن الاختلاق والتحريف للأقوال بعمد أو خطأٍ، ولا حياء يهذبُ من حِدّتهم في الخصام والأذى، ثم يطيرون بالقالة وأعمال أهل السفالة"[٢].

هذه هي الحالة الواقعية للجمهور عندما يجتمع على غير ترتيب سابق، ودوركايم أراد أن يجعل من هذه الغوغائية ، والعشوائية إلها يعبد، وحاكما لا يُرد له أمر،

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة

(٢) التحرير والتنوير ـــ الطبعة التونسية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (٢٢/٢٣٣) مرجع سابق

ولا يُخالف له نهي. وهـــذه هي عبادة الهوى عينها قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] "والأهواء: جمع هوى، وهو المحبة والميل. والمعنى: أن دينهم أعمال أحبوها لم يأمر الله بها ولا اقتضتها البراهين"(١).

وفي تقييم للدور الذي قام به دوركايم يقول الدكتور عاطف غيث: "إن علم الاجتماع الذي يدرس بجامعتنا – بصورته ومادته الحالية – أداة انهزامية في مجتمعنا العربي .إن اليهودي الفرنسي دوركايم حاول أن يطمس فاعلية الإنسان، ويجعله عبدا لمصير مجهول، وحاول كذلك أن يميِّع حركة التاريخ، ويبعد الأحداث التاريخية عن مضمون الواقع المعاصر حتى لا يتعرف الباحث على حقيقة مسيرة التاريخ نحو هدفه الذي لابد منه، وهو ضرورة تحرير المجتمع الإنساني من القيود التي كبلته قرونا عديدة. ودوركايم صاحب الأفكار التي تعوق النزعات الحرة كلها، ويقف حائلا أما تخطيط الإنسان لمستقبله"(٢).

هذه خلاصة آراء دوركايم الاجتماعية، وهى كما ترى حرب على الإنسان والمجتمع في آن واحد، وحلقة من حلقات العداء اليهودي للإنسانية في القضاء على الدين والأخلاق، حتى تتحول المجتمعات إلى قطعان من الحيوانات موضوعة في حظائرها تأكل وتشرب وتتناسل بصورة آلية، ولا يتحكم فيهم إلا الحظائر التي تحيط بهم جدرانها يقول دوركايم "إن الميل إلى الاجتماع كان غريزة وراثية وجدت لدى الجنس البشرى منذ نشأته. وإنه لمن الطبيعي جدا أن ننظر إلى هذا الميل على أنه نتيجة للحياة الاجتماعية التي تشربت بها نفوسنا على مر العصور والأحقاب؛ لأننا نلاحظ في الواقع أن الحيوانات تعيش جماعات أو أفرادا تبعا لطبيعة مساكنها التي توجب عليها الحياة في جماعة أو تصرفها عن هذه الحياة"(٣).

---

(١) المرجع السابق (٣٤٨/٢٥)

(٢) إطار إسلامي للفكر المعاصر أنور الجندي ص(٩٤) المكتب الإسلامي ط١/١٤٠٠هـــ١٩٨٠م

(٣) قواعد المنهج في علم الاجتماع ص(١٧٣) مرجع سابق

ويتضح من كلام دوركايم أنه شبه المجتمع الإنساني بالمجتمع الحيواني، فكما أن المجتمع الحيواني يفرض عليه العقل الجمعي أن يعيش بهيئة معينه كذلك المجتمع الإنساني، إذن المجتمع الحيواني هو القدوة وهو مصدر الإلهام عند دوركايم بالنسبة للمجتمع الإنساني. قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [النساء: ٢٧].

المبحث الثالث

الأسس العلمانية للدين عند إيميل دوركايم

لا يمكن بحال من الأحوال إغفال دور الدين في الحياة الاجتماعية، فما من مجتمع إلا وكان له دين يقوده ويوجهه، ولهذه الأهمية تأسس فرع في علم الاجتماع يسمى بعلم الاجتماع الديني الذي يعنى "الدراسة العلمية لتأثير المجتمع والثقافة في الدين، كما يدرس أيضا تأثير الدين في المجتمع والثقافة والشخصية"(١).

ودوركايم كرائد من رواد علم الاجتماع قام بدراسة الدين وتأثيره في المجتمع ؛ ولكن دوركايم "يخالف جميع المذاهب التي تدعى أن التدين حالة نفسية تنبع من فطرة الفرد كلما فكر في الآفاق أو في نفسه ويرى هو أن التدين وليد أسباب اجتماعية"(٢)؛ لأن نظرية المعرفة الذي ينتمي إليها دوركايم هي الفلسفة الوضعية التي تُعد "أساسا للعلم – عنده – وهى الفلسفة التي وضعت حدا للتأملات العقيمة (من وجهة نظره) ولذا يجب أن يهتم علم الاجتماع بالوقائع القابلة للملاحظات، وأن يستخلص قضاياه العامة منها"(٣).

إن مفهوم المعرفة بالمعنى القديم" قد تعرض لتحول جذري فاقتصر على تلك المعلومات التي جاءت عن طريق الملاحظة، وخضعت لاختبار حسي مباشر للملاحظة الإحصائية، واجتازت اختبارا عقلانيا متشددا وفرزا علمانيا أشد لكل الظواهر الكونية – بما في ذلك الظواهر الإنسانية – أعيد بناؤها بالأسلوب الظاهري السطحي لمنهج البحث الجديد الحصري العلماني الذي عرف (بالوضعية المنطقية) "(٤).

من هذه الخلفية الفكرية راح دوركايم يدرس الدين. وينتظم الكلام عن الدين

---

(١) قاموس علم الاجتماع ص (٤٦٣) مرجع سابق.

(٢) الدين د/دراز ص(٢١٣) مرجع سابق.

(٣) النظرية في علم الاجتماع ص(٩٦-٩٧) مرجع سابق.

(٤) نحو علم اجتماع اسلامي ص(٨٦) مرجع سابق.

عند دوركايم فيما يلى:

أولا: تعريف دوركايم للدين:

يعرف دوركايم الدين بأنه" منظومة موحدة من المعتقدات والممارسات المتعلقة بأشياء مقدسة أى معزولة ومحرمة، وهى معتقدات وممارسات توحِّد في جماعة معنوية – تسمى الكنيسة – جميعَ من ينضمون إليها"(١).

وهذه المعتقدات عبارة عن تصورات ذهنية عن القداسة، وعن التفاعل بين ما هو مقدس، وبين ما هو دنيوي. ولا صلة بين هذه المعتقدات وبين التصديق القلبي البالغ حد اليقين يقول دوركايم: "إن المعتقدات الدينية تصورات تعبر عن طبيعة الأشياء المقدسة، وعن العلاقات التي يقيمها إما بعضها مع بعضها الآخر وإما مع الأشياء الدنيوية"(٢).

وإذا سألنا دوركايم عن مصدر القداسة هل هو (الله) أم (المجتمع)؟ يجيب بالقول: "ينبغي ألا نفهم من الأشياء المقدسة مجرد تلك الكائنات الشخصية التي نسميها آلهة أو أرواحا ؛فالصخرة والشجرة والينبوع والحصاة وقطعة الخشب والبيت أي باختصار كل شيء يمكن أن يكون مقدسا أيا يكن"(٣).

إذن المجتمع هو مصدر القداسة عند دوركايم وليس (الله) "فالأشياء المقدسة هي الدينية في مظهرها؛ ولكن اجتماعية في مصدرها"(٤).

ولذا يقول دوركايم بصريح العبارة "التصورات الدينية هي أمور اجتماعية من الطبقة الأولى حين تمتزج أو تفترق، وحين يتحول بعضها إلى بعضها الآخر فيؤدي ذلك

---

(١) الأشكال الأولية للحياة الدينية المنظومة الطوطمية في استراليا إميل دوركايم (٧٢-٧٣)ترجمة رندة بعث المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ط١/٢٠١٩م

(٢) المرجع السابق ص(٦٥)

(٣) المرجع السابق ص(٦١)

(٤) علم الاجتماع الإسلامي د/ سامية مصطفى الخشاب ص(٢٦) دار المعارف ط٤/١٩٨٧م

إلى نشأة ديانات متناقضة فيما بينها ومتضادة إلى أكبر حدٍّ"[١].

وبالتالي فإن "الدين يعتبر شيئا اجتماعيا، ولذا يتضمن فكرتين أساسيتين:

الأولى: أن الأفكار والممارسات الدينية إنما تشير أو ترمز إلى الجماعة الاجتماعية.

والثانية: أن التجمع هو المصدر، أو المنبع الأصلي، أو السبب النهائي للخبرة الدينية"[٢].

""ففكرة المجتمع هي روح الدين"[٣]. عند دوركايم. والجسم بلا روح جثة هامدة لا حراك لها، فالمجتمع هو الذي ينفث في الدين روح الحياة، ولولا فاعلية المجتمع وسرمديته ما كان للدين ولا أي من مظاهر الحياة وجود يذكر. وأنت ترى أن دوركايم يؤسس لدين منتزع من الواقع، وليس نازلا من عند الله. وهذا هو عين المذهب الدهري الذي ينسب الفاعلية إلى الزمان وليس إلى الله.

ثانيا: الأصل الاجتماعي للدين عند دوركايم

ولكي يستقيم لدوركايم رأيه في تفسير الدين وجّه انتقادات لاذعة للدين الطبيعي والدين الأرواحي فيقول: "ما من منظومة دينية قديمة أو حديثة، إلا ونعثر فيها على ما يشبه دينين اثنين متمايزين على الرغم من ارتباطهما الوثيق وتغلغل واحدهما في الأخر، يتوجه أحدهما إلى وقائع الطبيعة كالرياح والأنهار، والكواكب والسماء، والنباتات والحيوانات والصخور لذلك نطلق عليه تسمية عبادة الطبيعة. أما موضوع الدين الثاني فهو الكائنات الروحية كالأرواح والجن والعفاريت والآلهة، والعوامل الحية والواعية كالإنسان"[٤]. وهذا يعنى أن الدين مذ كان ما هو إلا تأليه لقوى الطبيعة، أو تأليه

---

(١) قواعد المنهج ص(١٩) مرجع سابق

(٢) رواد علم الاجتماع ص(١٣٣) بتصرف يسير مرجع سابق

(٣) الأديان في علم الاجتماع جان-بول ويليم ص(٢٦) ترجمة بسمة بدران المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط١/١٤٢١هـ-٢٠٠١م

(٤) الأشكال الأولية للحياة الدينية ص(٧٥-٧٦) بتصرف كثير مرجع سابق

للأرواح "وهاتان النظريتان هما حتى الآن الوحيدتان اللتان حاول الناس عبرهما تفسير أصول الفكر الديني تفسيرا عقلانيا"[١].

ولكن هل اقتنع دوركايم بأي من النظريتين أم كان له رأى آخر؟ والحق أن دوركايم لم يرتض أيا من النظريتين، فعبادة الطبيعة "تجعل من الدين منظومة هلوسات ..، إذ لا يقيم الفكر الديني صلة بالواقع إلا ليغطيه بغلالة سميكة تخفى أشكاله الحقيقية، هذه الغلالة هي نسيج المعتقدات الخرافية"[٢].

وعبادة الأرواح، أو كما يسميها الديانة الأرواحية ما هي "إلا تمثلات مهلوسة ،وليس لها أي أساس موضوعي"[٣]. حيث إن "الكائنات المقدسة ما هي إلا تصورات خيالية يولدها الإنسان في شكل من الهذيان الذي يتولاه بانتظام كل يوم ،ومن دون أن نتمكن من رؤية الغايات المفيدة التي يمكن أن تقدمها ولا إلى ماذا تستجيب في الواقع"[٤].

ومع نقد دوركايم اللاذع لهذين المذهبين العقليين، والتوهين من إمرهما، فإنه يرى أنهما يتوافقان في نقطة هي "أنهما يقومان ببناء مفهوم الإلهي من خلال الأحاسيس التي توقظها في دواخلنا بعض الظواهر الطبيعية الفيزيائية أو البيولوجية. فالنسبة إلى الأرواحيين هي الحلم، أما بالنسبة إلى مناصري عبادة الطبيعة فهي بعض التجليات الكونية"[٥].

وأنت ترى أن الألوهية عند دوركايم مجرد مفهوم ذهني منتزع من بعض الظواهر الطبيعية، ولا يوجد له ثمت حقيقة ثابتة في الخارج، وهذا عين الإلحاد، بل هو استدعاء

---

(١) المرجع السابق ص(٧٦)

(٢) المرجع السابق ص(١١٣)

(٣) المرجع السابق ص(٩٩)

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة

(٥) المرجع السابق ص(١٢١)

للمذهب الدهري الذي كان العرب يتدينون به العرب ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤] بل إن دوركايم قد أبعد النجعة حين استكثر على الدين أن يكون مفهوما ذهنيا مقبولا حين قال:" وجب علينا في النهاية أن نرى في الدين نتاج تأويل هذياني"(١). ذلك لأن الدين عند دوركايم لا صلة له بالعلم حيث يقول: "الدين نوع من التأمل بصدد كل ما يفلت من العلم، وعلى نحو أعم كل من يفلت من الفكر الجلي"(٢).

وبما أن هاتين النظريتين على هذا النحو من الهذيان والهلوسة على حد تعبير دوركايم، فلابد إذن من نظرية جديدة فراح دوركايم يؤسس لنظرية جديدة تحل محل هاتين النظريتين في تفسير نشأة الدين فإذ بدوركايم يفسر الدين تفسيرا اجتماعيا "فالدين قديم كالاجتماع، وكان الصورةَ الأولى للمجتمع وتطورا معا"(٣). وهذا يعنى أن المجتمع هو الأساس، وأن الدين صورة من صوره التي تتطور دائما "ولذا قرر دوركايم أن أصل التدين هو الاتجاه الطوطمي"(٤)، وعن هذا الاتجاه تفرعت الاتجاهات الدينية كلها ..،

---

(١) المرجع السابق ص(١٢٢)

(٢) المرجع السابق ص (٤٥)

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة س(٤٣٤) مرجع سابق

(٤) تطلق كلمة طوطم التي تنسب إليها العقيدة الطوطمية ،على كل أصل حيواني أو نباتي تتخذه عشيرة ما رمزا لها ،ولقبا لجميع أفرادها ،وتعتقد أنها تؤلف معه وحدة اجتماعية ، وتنزله وتنزل الأمور التي ترمز إليه منزلة التقديس ، فإذا كان الذئب مثلا طوطما لعشيرة ما؛ فمعنى ذلك أن هذه العشيرة تتخذ هذا الحيوان رمزا لها يميزها عما عداها من العشائر ،ولقبا يحمله جميع أفرادها للدلالة على انتمائهم إليه ،وتعتقد أنها هى وفصيلة الذئاب من طبيعة واحدة ،أي أنه يتألف من أفرادها ومن أفراد هذه الفصيلة الحيوانية وحدة اجتماعية أو ما يشبه الأسرة الواحدة ، وتنزل هذا الحيوان وما يرمز إليه منزلة التقديس ،وتقوم عقائدها وطقوسها الدينية على أساس هذا التقديس" ينظر: غرائب النظم والتقاليد والعادات د/على عبدالواحد وافي ص(١٦) نهضة مصر أبريل ٢٠٠٤م ويرى دوركايم "أن الطوطمية ديانة اشتقت منها معتقدات وممارسات كثيرة ، فهي منبع لجميع الديانات القائمة على عبادة الحيوان والنبات التي يمكن ملاحظتها لدى الشعوب القديمة" ينظر الأشكال الأولية للحياة الدينية ص(١٢٣) بتصرف مرجع سابق

ووصل دوركايم إلى هذه الحقيقة من دراسة المجتمعات الطوطمية التي تعتبر في نظره أنها ممثلة لأقدم مظاهر الحياة الاجتماعية"[١]. فالطوطمية هي أصل لجميع الأديان وبالتالي فإن الأديان جميعها ترجع إلى أصل وثني لأن "الله في جميع الأديان ليس إلا هذا المبدأ العجيب الذي وضعته الطوطمية"[٢].

"والطوطم أيضا هو رمز للإله وللجماعة، وهنا يستنتج دوركايم نتيجة قاطعة أداه إليها مذهبه الاجتماعي؛ وهى أن الله والجماعة ليست إلا شيئا واحدا ، فإله العشيرة أو الإله الطوطمي لا يمكن أن يكون سوى العشيرة نفسها"[٣].

"وقد عبر دوركايم عن هذا المعنى بصريح العبارة فقال" إن الطوطم يعبر عن نوعين من الأشياء المختلفة ويرمز إليها. فمن جهة هو الشكل الخارجي والملموس لما أطلقنا عليه تسمية المبدأ، أو الإله الطوطمي. إلا أنه من جهة أخرى رمز هذا المجتمع المحدد الذي تطلق عليه تسمية العشيرة. إنه رايتها؛ العلامة التي تتميز بها كل عشيرة ...، إذا كان في الوقت عينه رمز الرب والمجتمع ،أفلا يكون الرب والمجتمع شيئا واحدا"[٤].

ويقول أيضا " لا ريب في أن أي مجتمع لديه كل ما يلزم لإيقاظ الإحساس بالإلهي في الأذهان، وذلك لمجرد سلطته عليها؛ لأن المجتمع بالنسبة إلى أعضائه يماثل الرب بالنسبة للمؤمنين به"[٥].

ومهما يكن من شيء فإن النتيجة التي انتهى إليها دوركايم من أبحاثة في طبيعة الدين وعلاقته بالمجتمع "أن المجتمع إنما يعبد نفسه"[٦].

---

(١) علم الاجتماع ومدارسه (١٩٨/١) بتصرف مرجع سابق

(٢) نشأة الدين ص(١٥٧) مرجع سابق

(٣) المرجع السابق (١٥٩)

(٤) الأشكال الأولية للحياة الدينية ص(٢٨٠)

(٥) المرجع السابق ص (٢٨١)

(٦) نشأة الدين ص(١٦٥) مرجع سابق

"والحياة الاجتماعية لا تستقيم إلا إذا كان المجتمع ونظمه وأوامره ونواهيه موضع تقديس الأفراد وإجلالهم، والنظام الطوطمي كان وسيلة لتمرين الأفراد، وترويضهم على هذا التقديس والإجلال لتقوى آصرة ارتباطهم بمجتمعهم، ويسلس قيادهم للحياة الاجتماعية، وما تفرضه من نظم، وتصنعه من قواعد تتعارض في كثير من مظاهرها مع أهواء الأفراد ورغباتهم"(١).

وأنت ترى أن دوركايم يرجع كل شيء إلى المجتمع، وأن المجتمع أصل والدين فرع عنه، وأن الظاهرة من حيث مظهرها دينية، ومن حيث مخبرها اجتماعية؛ فالمجتمع هو علة وجودها، وهو المنشئ والموجه لها.

ثالثا: نقض رؤية دوركايم للدين

إن رؤية دوركايم للدين رؤية علمانية إلحادية، لا يمكن قبولها أو حتى التسليم بها وذلك لما يلي:

١ – " أرجع دوركايم الدين إلى أصل أرضي؛ أي إلى طبيعة المجتمع الإنساني ،ولم يعترف بارتباطه بالمشيئات السماوي. وهذا لا يستقيم مع ما تذهب إليه الديانات السماوية أو الأديان الراقية"(٢). وهذا الذي قرره دوركايم ليس معه فيه أثارة من علم؛ فهل شاهد دوركايم بداية الحياة على كوكب الأرض، واستقرأ جميع تفاصيلها في جميع أنحاء المعمورة حتى يتوصل إلى هذه النتيجة التي لا يملك إقامة الأدلة عليها بل إن دوركايم كما يقول د / دراز بحق "والعجيب أن رئيس المدرسة الاجتماعية الفرنسية يعترف بأن عددا من قبائل أستراليا قد وصلوا إلى فكرة (الإله الأعلى) أو (الإله الأحد) وأنه كائن أزلي أبدي تسير الشمس والنجوم بأمره

(١) الدين والإنسان دراسات في الأديان القديمة د/عبدالغفار محمد عزيز وآخرون ص(٣١) الفاروق الحديثة ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م

(٢) علم الاجتماع ومدارسه (٢٠٤/١) مرجع سابق

الخ"[١]. وأنت ترى أن العيّنة التي قام دوركايم بدراستها وهى "قبائل أستراليا الوسطى التي تمثل أقدم الأطوار المعروفة للقبائل"[٢]. عند دوركايم لم تسلم له حيث ظهر منها من يؤمن بالله الواحد الذي يجب له كل كمال ويستحيل عليه كل نقص، وأيضا "فإن قبائل استراليا الوسطى لم تكن أقدم جماعة إنسانية، إنما كانت هي الطور السادس الذي انتهت إليه العقلية الوطنية لأهل أستراليا بل هي أكثرها تقدما. وهذا ما يثبته علم الأجناس"[٣]. "هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن دوركايم " قصر أبحاثه على الطوطمية الأسترالية المتوسطة، ولم يشر إلى أنواع الطوطمية في شمال أمريكا إلا قليلا. إن المنهج المقارن كان يوجب عليه أن يقوم بدراسة مقارنة مفصلة للطوطمية في جميع صورها"[٤]. وهذا خلل في المنهج أعقبه خلل في النتيجة.

٢ – ارتكب دوركايم خطأ التعميم حين جعل من فكرة المانا"[٥]. فكرة عامة "وأنها مبدأ عام منبث في الأشياء بل ثبت أنها فكرة غير كلية على الإطلاق وأنها فكرة جزئية مشخصة، وذهب بعض الباحثين إلى أن المانا لا تشير أحيانا إلى أية قوة دينية"[٦]. وهذا التعميم يخالف الواقع بطبيعة الحال "فالتوحد بين الدين والكون قد يظهر في المجتمعات البدائية في حين يختفي في المجتمعات المتقدمة"[٧]. يقول الدكتور النشار:

---

(١) الدين ص(٢١٩) مرجع سابق

(٢) المرجع السابق ص(٢١٦)

(٣) نشأة الدين ص(١٧٧) مرجع سابق بتصرف

(٤) المرجع السابق ص(١٧٦)

(٥) "المانا قوة ذات تأثير غير مادي ،هى قوة فوق الطبيعة في بعض الحالات؛ ولكنها تتميز بالقوة المادية –أو بكل نوع من أنواع القوة والسيطرة التي يملكها الإنسان ،إنها لا تتركز في شكل معين إنها تفعل في كل أنواع الأشياء" ينظر: نشأة الدين ص(١٥٨)

(٦) المرجع السابق(١٧٠)

(٧) دراسات في الاجتماع الديني – علم الاجتماع الديني د/سامية مصطفي الخشاب ص(٥٥)دار المعارف ط١/١٩٨٨.

"ومن العجيب أن يعمم فكرته على الأديان جميعا بحيث يرى في الأديان الحديثة صورا من الأساس الجماعي الذي بنى عليه فكرته في الطوطمية. إن الدراسة الاجتماعية المحايدة لكثير من الأديان المتحضرة، والمعاصرة لتثبت تمام الإثبات فساد فكرته"(١).

٣ – النظام الطوطمى الذي ادعى دوركايم أنه النظام الأساسي للدين ومنه خرجت كل الاتجاهات الدينية. هذا النظام ليس نظاما دينيا إنما هو نظام اجتماعي يقول الدكتور النشار "المشكلة الأصلية هي دينية الطوطمية نفسها. إن الطوطمية نظام اجتماعي عرفته الإنسانية في فترة من فتراتها الأولى – ما في ذلك شك – ولكن هل الطوطمية حقا نظام ديني. إن الاستقراء الدقيق للعشائر الأسترالية لا يثبت إطلاقا فكرة دوركايم"(٢).

ويذهب د/دراز هذا المذهب فيقول:" ولا نرى في هذه الألقاب والرموز عندهم إلا شعارا قوميا يعرف أنسابهم، وينمى فيهم شعور الوطنية، وباعثة التعاون، واحترام قانون توزيع الملكية وسائر قوانين الجماعة. فهم لا يعبدون تلك الرسوم ولا مدلولاتها؛ بل لهم معبود روحي يعتمدون عليه في جلائل أعمالهم ودقائقها"(٣).

٤ – إن الدراسة العلمية للظاهرة الاجتماعية أن ندرسها كما قرر دوركايم ، نفسه دراسة موضوعية شاملة بحيث نستقرأ الظاهرة " من سلوك غالب أفرادها موضوعية في غالب أزمنتها وأمكنتها. وإذا كان من المتفق عليه أن الدين يكاد يسيطر على كل شيء في حياة الجماعات الفطرية، أفلا يكون من أشنع المخالفات القانونية أن تلتمس هذه الظاهرة الدينية عند هذه الشعوب في تلك الحالات النادرة ...، إن دوركايم جعل الشاذ قاعدة للغالب، وأساء الاختيار حيث أخذ

---

(١) نشأة الدين ص(١٧٢) مرجع سابق.

(٢) نشأة الدين ص(١٧٥) مرجع سابق.

(٣) الدين ص (٢١٨-٢١٩) مرجع سابق.

اللون الإباحي اللاديني، فجعل منه حقيقة الدين"[١]. ولذا فإن دوركايم يعرف الدين بأنه" نسق معقد إلى هذا الحد أو ذاك من الأساطير، والعقائد والاحتفالات"[٢]. وأنت ترى أن دوركايم يخالف منهجه في دراسة الظاهرة فيجعل من الشذوذات التي تنتاب المجتمع إبان ضعفه دينا راسخ البنيان مكتمل الأركان وليس الأمر كذلك.

٥ – "إن المشابهات التي توحي بالمعاني الكلية متحققة في الجماد، وفي النبات ،وفي الحيوان، وفي حياتنا الاجتماعية، فلا يمكن أن يقال إن الحياة الاجتماعية مصدرها الوحيد"[٣]. لأن المتشابه الذي أوحى بالمعنى الكلي في الجماد إذا كان مخلوقا من المجتمع، وكذا المتشابه في الحيوان، وكذا المتشابه في النبات؛ فمن الذي أوجد المتشابه الذي أوحى بالمعنى الكلي في حياتنا الاجتماعية؟ فإذا قلنا المجتمع نفسه إذن والحال هذه يكون المجتمع خالقا لنفسه ومن ثم يكون المجتمع علة ومعلولا خالقا ومخلوقا في آن واحد وهذا من المحالات العقلية التي ارتكبها دوركايم في سبيل إقرار نظريته التي تناقض الحكم العقلي لأنه "إذا كانت الحياة الاجتماعية قد انتظمت على أنحاء كلية، فلا يخلو إما أن يكون ذلك بناء على معاني سابقة في أذهان بنى الإنسان، أو بناء على مشابهات وجدوها بينهم، وفي كلا الحالين تكون المعاني راجعة إلى غير الحياة الاجتماعية"[٤]. وبهذا يتضح أن الدين ليس من إنتاج المجتمع كما يدعى دوركايم.

٦ – لم يقدم دوركايم تفسيرا لظواهر "النبوة والوحى والمعجزات وخوارق الطبيعة، ونزول الرسالات عن الذات الإلهية. وهذه الظواهر التي ترتكز عليها الديانات

---

(١) المرجع السابق ص (٢٢٠) بتصرف يسير.

(٢) الأشكال الأولية للحياة الدينية ص (٥٩) مرجع سابق.

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة ص (٤٣٤) مرجع سابق.

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة.

السماوية"[١].

٧ – "إن النتيجة التي تنكبها دوركايم أن الأديان في نشأتها فردية بحتة، يثبت هذا البحث الأنثروبولوجي"[٢]، والتأمل في حقيقة الدين، ثم في تطورها فردية اجتماعية فيها الجانب الفردي من صلوات وعبادات، وعقائد خاصة بين الفرد وإلهه، وفيها الجانب الاجتماعي من نواه وأوامر، وأحكام، ومذاهب أخلاقية"[٣].

٨ – كون الدين مخلوقا من مخلوقات المجتمع محض هراء "فليس من المعقول قط أن يكون الدين – هذا النظام الديني البديل – ناشئا عن تلك القوة الميكانيكية الآلية المسماة بروح الجماعة أو العقل الجمعي"[٤]. هذه القوة التي لا وجود لها، وإنما الموجود هو العقل الفردي، فكيف بقوة متوهمة تكون بديلا عن الخالق سبحانه، وتكون خالقة للدين ومنشئة له؟! " فهل سمع أحد بديانة ناشئة تحمل تعاليم جديدة، وتدعو إلى شعائر غير مألوفة يكون موقف الجماعة منها موقف حمل الأفراد عليها، وإلزامهم بها؟ أم يكون موقفها موقف المناهضة لها، والمقاومة العنيفة لداعيها"[٥]. وأنت ترى أن دوركايم يضرب بالوقائع التاريخية عرض الحائط، ويكذب على مسيرة التاريخ الناطقة بهذه الحقيقة، بأنه ما من رسول أرسله الله إلا وعورض معارضة شديدة أدت إلى قتل بعضهم وتكذيب البعض الآخر ؛ فإذا كان الدين من خلق المجتمع كما يدعى دوركايم فكيف يتأتى في العقل أن يناهض المجتمـــع دينا خلقه بيديه

---

(١) علم الاجتماع ومدارسه (١/٢٠٥) مرجع سابق.

(٢) مصطلح الأنثروبولوجيا يعنى (علم الإنسان). ومن أشهر تعريفات هذا العلم: (علم الإنسان والحضارات والمجتمعات البشريّة، وسلوكيّات الإنسان وأعماله، وهذا هو التعريف العام للأنثروبولوجيا؛ حيث ظهر مصطلح الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة، والتي تُعنى بعلوم الإنسان ككائنٍ جماعي "من مقال على الشبكة العنكبوتية ⍰.

(٣) نشأة الدين ص(١٧٤) مرجع سابق.

(٤) نشأة الدين ص(١٧١) مرجع سابق.

(٥) الدين ص(٢٢٣) مرجع سابق.

ونفخ فيه من روحــه؟! قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الصفات: ٧١ – ٧٤] يقول الإمام ابن كثير" يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ كَانُوا ضَالِّينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى. وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ فِيهِمْ مُنْذِرِينَ، يُنْذِرُونَ بَأْسَ اللَّهِ، وَيُحَذِّرُونَهُمْ سَطْوَتَهُ وَنِقْمَتَهُ، مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَعَبَدَ غَيْرَهُ، وَأَنَّهُمْ تَمَادَوْا عَلَى مُخَالَفَةِ رُسُلِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ. فَأَهْلَكَ الْمُكَذِّبِينَ وَدَمَّرَهُمْ، وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ وَنَصَرَهُمْ وَظَفَّرَهُمْ"(١). وأنت ترى أن القرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة التاريخية القاضية بأن أكثر الأمم السابقة قد ضلت ولم تتبع رسالات أنبيائها ورسلها. فكيف يدعى هؤلاء أن وقائع التاريخ تشهد لهم؟!

٩ – تقول الأسطورة الهندية في نشأة الخلق "أن الإله (براجاباتي) هو في نفس الوقت خالق وخلق؛ لأنه كان في أول الأمر واحدا، فاشتاق إلى التكثر وتمناه، فلم يكن من بقية الآلهة إلا أن أجابوه إلى سؤله. فضحوه وقطعوه إربا ونثروا أجزاءه في جميع البقاع، فتكوّن العالم كله من هذه الأجزاء، ولكن أفراد هذا العالم المتباعدة لاتزال تشتاق إلى قربها، ولهذا تتجاذب فيما بينها دائما لتحقق هذا التوحد المنشود منها جميعا. وهذا الشوق سر التجاذب الخفي الموجود في جميع عناصر الكون"(٢). ألا ترى أن هذه الأسطورة الهندية الموغلة في القدم أصفى في التعبير عن مذهب دوركايم في تأليه المجتمع من كلام دوركايم نفسه. فالإله قد تقطعت أوصاله، وتكوّن من كل جزء منه جزء من أجزاء هذا العالم، ثم بدافع الشوق تجمعت

(١) تفسير القرآن العظيم أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق سامي بن محمد سلامة دار طيبة ط٢/ ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م.

(٢) الفلسفة الشرقية د/محمد غلاب ص (٩٤-٩٥) مكتبة الأنجلو المصرية، ط: ٢، بدون تاريخ.

عناصر هذا الكون. إن الأسطورة على سذاجتها تؤكد بما لا يدع مجالا للشك الأساس الوثني لنظرية دوركايم في نشأة الدين. إن هذه الأسطورة تقرر أن العالم "لم ينشأ من عدم، وإنما أجزاؤه هي أبعاض الإله، وسنرى أن هذه الأسطورة الساذجة ستتطور إلى وحدة وجود جديرة بالدرس والعناية"(١). وهذا ما حدث بالفعل فإن الله والمجتمع شيء واحد، أو وجهان لعملة واحدة وهكذا تمضي الحياة خالقة ومخلوقة، صانعة ومصنوعة إلى غير غاية، وهذا فيه ما فيه من جحود الصانع سبحانه، وإنكار لقائه جل جلاله، وهذا هو عين الإلحاد والمروق عن الدين عياذا به سبحانه.

١٠ – وأخيرا فإن دور كايم "ربيب المذهب الماركسي والنظرية المادية، ومفهومه معارض تماما لكل القيم الأساسية التي جاءت بها الفطرة، أو صاغتها الأديان في منهجها الرباني القائم على الفطرة، وهو في كل دعاواه – يأخذ الطرف الثاني المعارض فإذا أعلنت الأديان أن الدين فطرة، وأن الأسرة فطرة، أعلن هو عكس ذلك تماما فقال إن الجريمة هي الفطرة، ولكن الدين والأسرة ليسا من الفطرة في شيء"(٢). وأنت ترى حرب دوركايم على الدين والأخلاق حربا لا هوادة فيها حتى تستسلم الإنسانية بأسرها للفكر المادي الإلحادي فيسهل على اليهود التحكم في مصائر الأمم والشعوب عن طريق الشهوات والشبهات، وبهذا يصل اليهود إلى هدفهم النهائي وغايتهم المنشودة التي تؤدي إلى شيوع الفساد، وغياب الفضيلة، وانعدام العدل وبهذا يصبح المجتمع الإنساني مجتمعا حيوانيا لا تحكمه إلا القوة، ولا تؤثر فيه إلا الشهوات قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن

(١) المرجع السابق ص (٩٦).

(٢) إطار إسلامي للفكر المعاصر ص (٩٧) مرجع سابق.

رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة: ٦٤]

وأنت ترى أن الله تعالى عبر عن سعيهم بالإفساد بالفعل المضارع الذي يفيد التجدد والحدوث أي أن سعيهم بالإفساد في الأرض متجدد إلى أن تقوم الساعة، إن في صورة مؤامرات وفتن، وإن في صورة حروب طاحنة لا تبقي ولا تذر، وإن في صورة نظريات تلبس لبوس العلم زورا وبهتانا؛ ولكنها تؤسس للإلحاد وتدعو إلى الرذيلة وتمكن للفساد في الأرض.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وإمام المرسلين

وبعد

إن أي نظرية سواء كانت في الفلسفة، أو الاقتصاد، أو السياسة، أو الاجتماع لابد لها من أساس تقوم عليه، وركن تستند إليه. والنظريات الاجتماعية ليست بدعا من النظريات. وقد تعرضت في هذا البحث لأهم نظريتين في علم الاجتماع الغربي. الأولى نظرية أوجست كونت الذي تمثل نظريته مرحلة الإحياء لعلم الاجتماع بعد اندثار ما قام به ابن خلدون. فعمل كونت على إحياء ما اندثر من علم الاجتماع الذي أسسه ابن خلدون؛ ولكن على أسس جديدة، ومنطلقات مختلفة. فقد استبعد كونت الميتافيزيقا بل دعا إلى طردها من العلوم الإنسانية كافة، كما طردت من العلوم الفيزيائية والكونية، واعتمد كونت الأساس الوضعي العلماني القائم على التجربة، فالإيمان إنما يكون بالمحسوس فقط، وما وراء ذلك ضرب من العبث الذي لا طائل من ورائه. إن كونت أقام نظريته الاجتماعية في جانبها الاستاتيكي على هذا الأساس فسحق الفرد لصالح المجتمع، ولم يأبه به ولا بمكانته، وتكلم عن الأسرة التي يبدأ بها الاستاتيك الاجتماعي عنده، والتي تتكون عنده من رجل وامرأة وأولاد فقط. تجمعهما أمور مادية فقط، ولا يوجد ثمة روابط معنوية من المودة والرحمة. أما الدولة فقد اعتمد كونت النظام الاقتصادي الرأسمالي، وهو نظام يدعو إلى الأنانية، وحب الذات وقهر الفقراء والمحتاجين، وهنا يبدو كونت متناقضا مع نفسه إذ كيف لا يأبه بالفرد ويعتمد في الوقت ذاته النظام الرأسمالي الذي يعمل لصالح الفرد على حساب المجتمع.

أما الديناميك الاجتماعي عند كونت فهو قائم على نظرية التطور الدارويني وهى نظرية أثبت العلم بطلانها وما بنى على باطل فهو باطل، واخترع كونت قانون الحالات

الثلاث للتطور العقلي وأنه يبدأ بالحالة اللاهوتية، ثم الميتافيزيقة، ثم الواقعية التي لا علاقة لها بالغيب. وهذا القانون بغنى بطلانه عن إبطاله. فهل شهد كونت مسيرة البشرية من مبدأها حتى زمانه الذي عاش فيه، أم أن المسألة لا تعدو إلا أن تكون رجما بالغيب، وادعاء للمعرفة دون سند من الحقيقة. إن كونت لعلمه بأهمية الدين، وأن أي مجتمع لا يقوم له بنيان، ولن تستقر له أركان إلا بالدين، عمل كونت على اختراع دين جديد سماه دين الإنسانية تخليدا لذكرى معشوقته التي هلكت وتركته يتلظى بنار العشق، فأفرغ الكهنوت الكاثوليكي من محتواه وملأه بتعاليم دينه الجديد فأنشأ مسيحية بلا عقيدة، وعمل على نشر دينه الذي ذهب أدراج الرياح، ولم يعد له وجود إلا في بطون الكتب التي تحدثت عن هذه التروة التي جعل منها صاحبها دينا يتقرب به إلى شيطانه.

أما دوركايم الذي استفاد من منهج كونت ولكن زاد عليه طوام لا ظل لها من الحقيقة فقام بتأليه المجتمع وجعل من المجتمع عابدا ومعبودا في نفس الوقت. وحارب دوركايم الدين والفطرة حربا لا هوادة فيها؛ فإذا كانت البشرية مطبقة على أن الأسرة فطرة، ذهب دوركايم إلى عكس ذلك تماما وزعم أن الأسرة ليست من الفطرة، وأن الروابط التي تربط أعضاء الأسرة هي روابط اجتماعية وليس روابط القرابة والدم. وإذا كانت البشرية مطبقة على فطرية الدين والأخلاق، ذهب دوركايم إلى عكس ذلك وزعم أن الدين من صنع المجتمع مخالفا بذلك الوقائع التاريخية التي تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن أصحاب الدعوات من الأنبياء والمرسلين، ناهضتهم مجتمعاتهم ووقفت لهم بالمرصاد، وحالوا بينهم وبين الناس، وهذا أمر لم يستطع دوركايم أن يقدم له تفسيرا يعوّل عليه إذ كيف يتأتى أن يناهض المجتمع دينا خلقه، وصوره؟.

إن دوركايم قد عمد إلى وثنيات غابرة موغلة في القدم وعمل على إحيائها وإلباسها لبوس العلم مثل الأسطورة الهندية التي تزعم أن الكون قد خلق من أجزاء الإله المُقطَّع! وبالتالي فالمجتمع هو الله، والله هو المجتمع وهذا استدعاء لعقيدة وحدة الوجود في صورتها الساذجة.

وتخلص هذه الدراسة إلى عدة توصيات:

١ – لابد من استقصاء الدراسة في المدارس الاجتماعية الغربية المختلفة، واستجلاء الأسس التي بنيت عليها.

٢ – لابد من المقارنة بين ما يقدمه الطرح العلماني الغربي في ميدان علم الاجتماع وبين ما يقدمه الفكر الإسلامي.

٣ – لابد من دراسة عقيدة وحدة الوجود وإبراز تجليتها في ميدان الاجتماع، والسياسة.

٤ – العمل على إحياء النظرية الإسلامية في علم الاجتماع تلك التي أسس لها العلامة ابن خلدون.

٥ – استقصاء التراث العربي والإسلامي الزاخر بحثا عن الأفكار الاجتماعية التي تؤسس لعلم اجتماع عربي وإسلامي على أسس ثابتة، وقواعد راسخة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا

محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كشاف المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: أهم المصادر والمراجع

١ – اتجاهات نظرية في علم الاجتماع د/ عبد الباسط عبد المعطي رؤية للنشر والتوزيع ٢٠٠٩م.

٢ – احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام د/ سعد الدين السيد صالح مكتبة الصحابة الشارقة ط٧/١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٣ – الأديان في علم الاجتماع جان–بول ويليم ترجمة بسمة بدران المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط١/١٤٢١هـ-٢٠٠١م

٤ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود العمادي محمد بن مصطفى دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٥ – أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة الأستاذ أبو الأعلى المودودي ترجمة محمد عاصم الحداد.

٦ – الإسلام دين الإنسانية مولانا محمد على ترجمة السيدة حبيبة شعبان يكن المكتبة الأهلية بيروت ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م.

٧ – الإسلام دين الإنسانية آنا ماري شيل تقديم د/زقزوق هدية هيئة كبار العلماء ذوالحجة١٤٣٨هـ .

٨ – الإسلام دين الإنسانية د/ محمد البهي تقديم د/ زقزوق هدية هيئة كبار العلماء شوال ١٤٣٨هـ .

٩ – الإسلام كما يراه الأوربيون د/ محمد غلاب هدية مجلة الأزهر ١٤٣٠هـ .

١٠ –الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة د/ يحيى هاشم فرغل دار المعارف بدون تاريخ.

١١ –الإسلام ونظرية داروين محمد أحمد باشميل بدون بيانات.

١٢ –الأشكال الأولية للحياة الدينية المنظومة الطوطمية في استراليا إميل دوركايم ترجمة رندة بعث المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ط١/٢٠١٩م.

١٣ –إطار إسلامي للفكر المعاصر أنور الجندي المكتب الإسلامي ط١/ ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.

١٤ –الإنسان في القرآن / عباس محمود العقاد الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٩٦م.

١٥ –الأيديولوجيا وعلم الاجتماع جدلية الانفصال والاتصال د/ وسيلة خزار منتدي المعارف، ط: ١/ بيروت ٢٠١٣م.

١٦ –البحث الاجتماعي دراسة في طرائق البحث وأساليبه د/محمد على محمد دار المعرفة الجامعية ١٩٩٧م.

١٧ –بصائر أزهرية على شرح السلم المنورق للشيخ برهان الدين حسن القويسني تحقيق د/ جمال فاروق ، كشيدة، ط: ٢/ ١٤٣٨هـ ٢٠١٧م.

١٨ –بناء النظرية في علم الاجتماع نموذج نظرية تقسيم العمل د/ كمال عبدالحميد الزيات مكتبة نهضة الشرق بحرم جامعة القاهرة ١٩٨٠م.

١٩ –بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي د/ سعد الدين صالح مكتبة الصحابة.

٢٠ –تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية د/ حسن شحاته سعفان دار النهضة العربية ١٩٦٢م.

٢١ –تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم دار المعارف، ط: ١٩٦٦/٤م.

٢٢ –تاريخ علم الاجتماع د/ محمود عودة دار النهضة العربية بيروت

٢٣ –التحرير والتنوير ـــ الطبعة التونسية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – ١٩٩٧ م

٢٤ –تراث الإنسانية – قواعد المنهج في علم الاجتماع لإيميل دوركايم د/محمود قاسم

٢٥ –التربية الأخلاقية إميل دوركايم ترجمة د/ السيد محمد بدوي مراجعة د/ على عبدالواحد وافي المركز القومي للترجمة ٢٠١٥م

٢٦ –تصدع مذهب دارون والأثبات العلمي لعقيدة الخلق د/حليم عطية سوريال المطبعة الوطنية الحديثة ١٩٣٧م

٢٧ –تفسير القرآن العظيم أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق سامي بن محمد سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م

٢٨ –خمسون عالما اجتماعيا أساسيا المنظرون المؤسسون تحرير/ جون سكوت، ترجمة/ رشا جمال الشبكة العربية للأبحاث والنشر ط٢ بيروت ٢٠١٣م

٢٩ –دراسات في الاجتماع الديني – علم الاجتماع الديني د/سامية مصطفي الخشاب دار المعارف ط١/١٩٨٨

٣٠ –دروس في الفلسفة الوضعية أوجست كونت تراث الإنسانية د/ محمود قاسم

٣١ –دفاعا عن علمية علم الاجتماع / سمير إبراهيم حسن وما بعدها المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٢٣م

٣٢ –الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان د/محمد عبدالله دراز دار القلم ط٥/١٤٢٤هـ٢٠٠٣م

٣٣ –الدين والإنسان دراسات في الأديان القديمة د/عبدالغفار محمد عزيز وآخرون الفاروق الحديثة ١٤٠٢هـ١٩٨٢م

٣٤ –رواد علم الاجتماع قراءة جديدة للفكر الاجتماعي الغربي د/محمد على محمد الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م

٣٥ –روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني الإمام شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي تحقيق علي عبد الباري عطية دار الكتب العلمية – بيروت ط١، ١٤١٥ هـ

٣٦ –السيرة النبوية لابن هشام عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، تحقيق: طه عبد الرءوف، شركة الطباعة الفنية المتحدة

٣٧ –الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام الأستاذ عباس محمود العقاد دار هنداوي ٢٠١٤م

٣٨ –الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار دار العلم للملايين – بيروت ط٤/ ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م

٣٩ –عقائد المفكرين في القرن العشرين: عباس العقاد، دار المعارف بدون تاريخ

٤٠ –علم اجتماع المعرفة د/ السيد عبد العاطي السيد دار المعرفة الجامعية ١٩٩٧م

٤١ –علم الاجتماع الإسلامي د/ سامية مصطفى الخشاب، دار المعارف ط٤/١٩٨٧م

٤٢ –علم الاجتماع المفهوم والموضوع والمنهج د/ صلاح الفوال دار الفكر العربي ١٩٨٢م

٤٣ –علم الاجتماع د/ عبدالحميد لطفي، مكتبة القاهرة الحديثة

٤٤ –علم الاجتماع د/ على عبدالواحد وافي نهضة مصر

٤٥ –علم الاجتماع د/ موريس خبزبرج دار سعد مصر

٤٦ –علم الاجتماع ومدارسه د/ مصطفى الخشاب مطبعة لجنة البيان العربي ط١ ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م

٤٧ –العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق د/ محمد البهي هدية مجلة الأزهر لشهر ربيع الآخر ١٤١٥هـ

٤٨ –الفكر الاجتماعي نظرة تاريخية عالمية هايترموس ترجمة د/ السيد الحسيني وآخرين سلسلة علم الاجتماع المعاصر كتاب رقم (٣٦) ط١ /١٩٨٠م

٤٩ –الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي د/ محمد البهي مكتبة وهبة ط١٤/١٤٢٦هـ٢٠٠٥م

٥٠ –الفكر الإسلامي في مواجهة التيارات الفكرية المعاصرة د/ يحيي هاشم فرغل ط١/١٤٠٦هـ ١٩٨٦م

٥١ –الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة في القديم والحديث د/ عبدالقادر محمود الهيئة العامة المصرية للكتاب ط٢ ١٩٨٦م

٥٢ –الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه د/محمود عبد الحكيم عتمان ط٥/١٤٢٥هـ٢٠٠٤م

٥٣ –الفلسفة الشرقية د/محمد غلاب مكتبة الأنجلو المصرية ط٢ بدون تاريخ

٥٤ –في الدين المقارن د/ محمد كمال جعفر دار الكتب الجامعية ١٩٧٠م

٥٥ –قاموس علم الاجتماع د/ محمد عاطف غيث الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٧٩م

٥٦ –قواعد المنهج في علم الاجتماع إميل دوركايم ترجمة د/محمود قاسم مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠م

٥٧ –كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم دمشق ط٤١٤٢٨هـ٢٠٠٧م

٥٨ –لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية شمس الدين أبو العون محمد بن أحمد السفاريني مؤسسة الخافقين دمشق الطبعة:٢ – ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م

٥٩ –المجتمع الإنساني في ظل الإسلام الإمام محمد أبو زهرة، هدية مجلة الأزهر لشهر ذي القعدة١٤٢٥هـ

٦٠ –المجتمع والمشكلات الاجتماعية د/السيد محمد بدوي مكتبة الأنجلو المصرية

٦١ –محاضرات في مناهج بحث اجتماعي التاريخ والتأسيس د/ عفاف علي عبد المعتمد

٦٢ –المدخل إلى الفلسفة أزفلد كوليه، ترجمة/ أبو العلا عفيفي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط٤ /١٩٦١م

٦٣ –المرجع في العلمانية كتاب أكسفورد تحرير فيل زوكرمان وآخرين ترجمة شكري مجاهد الشبكة العربية للأبحاث والنشر ط١ بيروت ٢٠٢٣م

٦٤ –مشكلات فلسفية مشكلة الإنسان د/ زكريا إبراهيم مكتبة مصر

٦٥ –مقدمة ابن خلدون عبدالرحمن بن خلدون، تحقيق د/ على عبد الواحد وافي مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م

٦٦ –مقدمة في علم الاجتماع أليكس إنكلز ترجمة د/ محمد الجوهري وآخرين دار المعارف ط١٩٨١/٥م

٦٧ –مناهج البحث في العلوم الإسلامية د/ مصطفى حلمي مكتبة الزهراء ط١٤٠٤/١هـ ١٩٨٤م

٦٨ –المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع دراسة في علم الاجتماع الإسلامي د/ نبيل السمالوطي دار الشروق جدة ط١/١٤٠٠هـ١٩٨٠م

٦٩ –منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية د/ محمد محمد امزيان المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤٠١هـ١٩٨١م

٧٠ –الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين د/ محمود رجب ط٣ بدون تاريخ

٧١ –نحو علم اجتماع إسلامي د/ محمد الغزالي ترجمة د/ حسن الشافعي إحياء ط١/١٤٤٥هـ٢٠٢٤م

٧٢ –نشأة الدين النظريات التطورية والمؤلهة د/ على سامي النشار دار السلام ط١/١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م

٧٣ –نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها نيقولا تيماشيف ترجمة د/محمد عودة وآخرين دار المعارف ط٨/١٩٨٣م

٧٤ –النظرية في علم الاجتماع دراسة نقدية د/ سمير نعيم أحمد ط٣/١٩٨٢م

٧٥ –النقد الأدبي أحمد الشايب ط١٠ مكتبة النهضة المصرية بدون تاريخ

٧٦ –هوامش على العقيدة النظامية: لإمام الحرمين الجويني د/ محمد عبد الفضيل القوصي مكتبة الإيمان /ط٢/٢٠٠٦م

فهرس الموضوعات

مقدمة ٦٢٩
التمهيد: التعريف بمفردات عنوان البحث ٦٣١
أولا: مفهوم الأسس ٦٣١
ثانيا: العلمانية ٦٣١
ثالثا: علم الاجتماع الغربي: ٦٣٣
أقسام علم الاجتماع الغربي ٦٣٦
رابعا: المنهج النقدي ٦٣٧
الفصل الأول: الأسس العلمانية لنظرية أوجست كونت الاجتماعية ٦٣٨
المبحث الأول: الأسس العلمانية للاستاتيك الاجتماعي عند أوجست كونت ٦٣٩
الظاهرة الاجتماعية عند أوجست كونت ٦٤٣
أولا: مكانة الفرد في الاستاتيك الاجتماعي عند أوجست كونت ٦٤٧
ثانيا: مكانة الأسرة في الإستاتيك الاجتماعي عند أوجست كونت ٦٥١
ثالثا: التصور الكونتي للدولة ٦٥٨
المبحث الثاني: الأسس العلمانية للديناميك الاجتماعي عند أوجست كونت ٦٦٣
أولا: قانون التطور ٦٦٤
ثانيا: قانون التقدم العقلي ٦٦٦
ثالثا: قانون التقدم العملي ٦٧٣
رابعا: قانون التقدم العاطفي ٦٧٥
المبحث الثالث: دين الإنسانية عند أوجست كونت ٦٧٩
أولا: عقيدة دين الإنسانية الكونتي ٦٨١
ثانيا: العبادة في دين الإنسانية الكونتي ٦٨٣
ثالثا: التبشير بدين الإنسانية الكونتي ٦٨٥

الفصل الثاني: الأسس العلمانية لنظرية إيميل دور كايم الاجتماعية..... ٦٨٨
المبحث الأول: الأسس العلمانية للظاهرة الاجتماعية عند إيميل دوركايم..... ٦٨٩
المبحث الثاني: الأسس العلمانية للعقل الجمعي عند إيميل دوركايم..... ٦٩٤
فما العقل أو الضمير الجمعي؟. ٦٩٤
ماهية العقل الجمعي..... ٦٩٥
فاعلية العقل الجمعي ٦٩٨
المبحث الثالث: الأسس العلمانية للدين عند إيميل دوركايم..... ٧٠٥
أولا: تعريف دوركايم للدين:..... ٧٠٦
ثانيا: الأصل الاجتماعي للدين عند دوركايم..... ٧٠٧
ثالثا: نقض رؤية دوركايم للدين ٧١١
الخاتمة..... ٧١٩
كشاف المصادر والمراجع..... ٧٢٢
فهرس الموضوعات..... ٧٢٩